جائزة الكاتب الشاب ٢٠٠٤
مؤسّسة عبد المُحسن القطان

# رسالة إلى الإله
سناء شعلان

# هجران على لوح أسود
أسماء الغول

**رسالة إلى الإله ـ سناء شعلان**
**هجران على لوح أسود ـ أسماء الغول**
الطبعة الأولى عام 2008
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

**جميع الحقوق محفوظة**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

**دار الآداب للنشر والتوزيع**
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

**مؤسّسة عبد المحسن القطّان A.M. Qattan Foundation**
5 Princes Gate
London SW7 1QJ - UK
Tel: + 44 207 581 8774
Fax: + 44 207 581 0741
e-mail: csp@qattanfoundation.org
http://www.qattanfoundation.org

سناء كامل شعلان

# «رسالة إلى الإله»

«مجموعة قصصية»

# حادث موسف سعيد جدًّا

لا أحد يستطيع أن يلومني على ما فَعَلْت، فأيُّ شاب يملك ذرّة نخوةٍ ورجولةٍ كان سيفعل ما فَعَلْت، الكلُّ تفهّم موقفي، حتى الشاب نفسه صفت نفسه لي في ما بعد، والقضاء كان رحيمًا بي كذلك، إذ خفّف الحكم عنّي إلى حدٍّ دفع غرامةٍ زهيدةٍ لا قيمة لها، لا أذكر حتى أنَّني دفعتها،وانتهت المشكلة بوصفي شابًا دمه حار، ولا يحتمل أن يُحاف جانبه، وكثيرًا ما وقف لي المارّة والجالسون في الحيّ ليلقوا التحيّة عليّ على اعتبار أنّي بطلٌ عصريّ، يلبس بذلةً أنيقةً، ويضع نظّاراتٍ طبيَّة، ولكنَّه عند اللّزوم ابن أصل، دمه يغلي في مرجل الشّرف.

ولكنّ المشكلة أنّي لم أتوقّف أبدًا عن لوم نفسي، بل إنّي لم أسامحها أبدًا، مع أنَّ صاحب العاهة نفسه قد سامحني على

ما يبدو، واكتفى بالانزواء تعبيراً عن حزنه، ورضوخًا لعاهته، لكنِّي بقيت أحتقر نفسي وأنعتها ( بالبلطجة )، في حين نعتني الكلّ بالرجولة والمروءة.

الرواتب المنخفضة والمواصلات ومديري المرتشي هم السبب في عاهة مصطفى، كما أنَّهم السّبب كذلك في الأزمةِ النَّفسيَّة التي أعيشها الآن، فلو لم تكن الرواتب منخفضةً لما اضطررتُ لأخذ مواصلات درجة ثالثة، لأصل بها متأخِّرًا إلى عملي منقوعًا بعرقي، منتوفًا كدجاجٍ في وعاء ماءٍ ساخن بسبب الزحمة وتدافع الراكبين والجالسين في الحافلة وتدانيهم، لأجد مديري المرتشي بعد كلّ هذا العناء قد خصم عليّ راتب اليوم، وعندما أحتجّ على ظلمه، يحوِّلني إلى مجلس تأديبٍ ليخصم عشرة أيّامٍ أُخر من راتبي المنكمش حدّ التلاشي، ومن ثم يوجِّه لي إنذاراً أول، وبذا أدفع أنا الموظَّف البسيط ثمن كلّ خطايا الفاسدين، وأصبح العدوّ الأول للشعب والدولة ولمشاريعهما الوطنيَّة الموقّرة التي لا يمكن أن يندس تحت لوائها أيُّ مرتشٍ أو انتهازي !!

لولا كلّ ما ذكرت لما دخلتُ الحيَّ كديك حبشٍ بذيلٍ منتوف، ولما رغبتُ في صفع أيِّ أحدٍ لأبرِّد نار قلبي، ولما قلعتُ

عين مصطفى الوحيدة في سورة غضبٍ تافهة، لولا كلّ ذلك لكانت عين مصطفى اليتيمة الآن في صفحة وجهه، ولما كنتُ أوشك على الجنون.

أنا شابٌّ متعلّم، متعلّمٌ إلى حدٍّ معقول، أحمل الشهادة الجامعيّة الأولى، ولولا ضيق ذات اليد، لكنتُ الآن من حملة شهادة الدكتوراه في حقلٍ من حقول الفيزياء التي أحبّها، لكنّ الفقر قطعني في نصف الطريق، حتى أتعفَّن في الحارة القديمة التي أعيش فيها مع عائلتي التي بتّ أنسى أحيانًا اسم بعض أفرادها لكثرتهم، ولتشعُّب حاجاتهم وظروفهم.

كان يمكن أن تتغيَّر كلّ حياتي لو كنتُ غنيًّا، أو على الأقل لو لم أفقأ عين مصطفى بأداةٍ لم أعد أذكرها، ما أذكره الآن فقط صوت عويل مصطفى كما ذئبٍ أجرب أشعلوا النار في ذنبه القذر، كان يصرخ كالممسوس، وهو مدمى العين، التي سريعًا ما فرّ زلالها، ثمّ انزلق دمها لزجًا حارًا ينفر من تحت أصابع يده التي شدَّها إلى عينه، وهو يصرخ: «عيني، لقد قلعت يا محمود عيني... الحقيني يا أمّي، لقد فقأوا عيني». يومها أدركت أنّ للدماء قدسيّةً، كان جسدي يرتجف وأنا أرى الدماءَ تتنزَّى من تجويف عينه، ويومها أدركتُ كذلك أنّ عينه الأخرى زجاجيّة،

أيّ مجرّد زينةٍ وتجميل، وأنَّه لم يكن يرى إلاّ بعينه اليتيمة التي فقأتها في ثورة غضبٍ مزعومة.

هل كانت نظرةً فضوليةً على جسد شقيقتي الصغرى وهي تشطف سلّم البيت، مشمِّرةً عن قدميها حتّى الأفخاذ، تستحقّ عين مصطفى الوحيدة ثمنًا لها؟ الكلّ قال: «نعم». الجيران شدّوا على يدي مؤيّدين موقفي، حتّى الجارة أم مصطفى لم تعد تدعو عليّ بالعمى والعجز والفقر عندما هدأت سورة غضبها، وقبلت بنصيب ابنها من العمى عقابًا له على تجسّسه على أعراض النّاس، والمصيبة أنّ المحكمة عدّت سلوكي الهمجيّ دفاعًا مشروعًا عن عرضي، واستشهد المحامي بآيةٍ كريمةٍ لتأكيد مشروعيّة سلوكي، فأيّده القاضي بإيماءة رأسٍ ثقيلة مع أنّ الآية الكريمة كانت لا تتناسب أبدًا ومعرض ما استشهد بها عليه.

الكلّ قال إنَّني معذورٌ في سلوكي، فاستكان مصطفى أمام حكم الكلّ، وقبلتُ بحكمهم وباستكانته لكي أنجو بريشي، ولكنِّي كنتُ أعلم أنّ كلّ أفخاذ نساء الدُّنيا لا تساوي عين مصطفى الوحيدة التي طاردني زلالها الأبيض ليل نهار، ونغّص عيشي ومنعني من النوم أو الأكل أو الراحة.

فكَّرتُ في أن أقلع عين المدير وعين المواصلات وعين راتبي القليل بل وعيني، وأن أهبها جميعًا لمصطفى المسكين، ولكن لا عزاء لي أو له في ذلك إذ كنتُ أعلم أنَّها جميعها لن تهبه حتى ولو رمشة عينٍ واحدةٍ، ولا بارقة نورٍ وحيدة.

لم يعد مديري المرتشي ولا راتبي الحقير ولا المواصلات التي تسحق الوقت والأناقة، ولا مستقبلي المتداعي، ولا مآسي الدنيا كلُّها تعنيني بقدر ما تعنيني عين مصطفى، فكّرتُ طويلاً في أنْ أهبه إحدى عيني، وأن أعيش بالأخرى، وسرتُ قدمًا في مشروعي الخطير، إلى أن خاب مسعاي عندما علمتُ من أوّل طبيبٍ حدَّثته برغبتي أنَّ عمليةً بهذا الشَّكل مستحيلة؛ لأنّ مشكلة مصطفى ليست في قرنيّةٍ مريضة، ولكن في جهاز إبصارٍ كامل قد أزيل من مكانه، ولا سبيل إلى الاستعاضة عنه بآخر، وبذلك ضاع الأمل الوحيد لمصطفى، ومن جديد عادت عينه الفقيدة مشكلة حياتي، وكابوس ضميري.

من سوء حظِّي أنَّ غرفة نومي التي أشترك بها مع إخوتي الثلاثة ومع جدّي المسنّ تطلّ على شرفة بيت مصطفى، التي بات مصطفى نزيلها الدائم ليل نهار، كان مشغولاً دائمًا بمتابعة برامج المذياع، قاطعًا بها ساعات يومه، وإن كان جهازه عُرضةً

للتوقُّف والتشويش، فقد كان مذياعًا قديمًا بلاقط استقبالٍ مكسور، وبذلك كان سوء عملي لي في المرصاد، لا يفارقني أبدًا، ولا يسمح لي بنسيانه برهة واحدة.

في البداية اشتريت مذياعًا جديدًا وحديثًا لمصطفى بكلّ مال الجمعيّة الذي كنتُ أدَّخره لشراء بذلةٍ جديدة، ومن ثم حاولت إقناع أختي ذات الأفخاذ التاريخيّة التي أريق الدّم من أجلها، أن تقبل بالزواج من مصطفى.. لكن مع أوّل حذاءٍ ألقي في وجهي أيقنتُ استحالة تنفيذ طلبي، وكان آخر عمل ترضية أفعله من أجل مصطفى أن توسّطتُ له من أجل الحصول على عملٍ في معهد المكفوفين، للدّقّة رتّبتُ له هذا العمل مقابل تجاوزٍ ما قدّمتُه لأحد المراجعين القذرين الذّين يراجعون دائرتي باستكلابٍ مقيت.

وبدأت أحوال مصطفى بالتحسُّن، فقد تعلّم القراءة والكتابة بلغة المكفوفين، وبات يذرع الطريق ذهابًا وإيابًا بمساعدة عصى المكفوفين البيضاء التي حصل عليها بالمجّان من مؤسَّسة المكفوفين التي يعمل بها، ولكنَّه ظلّ على الرغم من ذلك مصطفى المكفوف، الذي فقأتُ عينه دون وجه حقّ.

جلستُ طويلاً إلى نفسي، وحاكمتها بموضوعيَّةٍ باباليَّة، وأصدرتُ الحكم على نفسي دون تحيُّز أو تجنٍ: العين بالعين، والسنّ بالسنّ، والبادئ أظلم. لذا فقد حكمتُ على نفسي بالعمى، ثم تقدَّمتُ لنفسي باستئناف رُفض على الفور، وبقي الحكم بالعمى قائمًا، ولكن على أن يُطبّق على مراحل تتناسب وظروفي.

الحقّ أنّي كنتُ مستعجلاً ومتحمِّسًا لتنفيذ الحكم لكي يرتاح ضميري، ولكي أستطيع أن أنام بعد أرقٍ عمره أشهر طويلة، بالتحديد عمره بعمر عمى مصطفى، في الأسبوع الأول من تنفيذ الحكم بعد صدوره، وبعد ردَّ الاستئناف تخلَّصتُ من نظارتي التي كانت بسمك قاع دورق تسخين، كان اليوم الأول صعبًا جدًّا، فقد كنتُ أعاني من قصر نظرٍ كبير مع انحرافٍ في الشبكيَّة ليس بالقليل، كانت الصور مشوَّشةً ومختلطة، عانيتُ كثيرًا حتى لبستُ ملابسي، وذقتُ الأمرّين حتى وصلتُ إلى عملي، الذي ما كدتُ أدلف إليه حتى انتهت ساعات الدوام الرّسمي فيه.

في اليوم التالي وصلتُ قبل انتهاء وقت الدوام بساعتين، ولما لم أكن قادرًا على القراءة، وتعذّر عليَّ أن أخبر الآخرين

بوضع الرؤية عندي، وبقرار محكمتي الذي صدر ضدّي، فقد اضطررتُ للتوقيع بالموافقة على كلّ طلبٍ قُدِّم لي، الأمر الذي فاجأ كلَّ من حولي، وأسعد مديري الفاضل!! وجعله يربِّت على ظهري قائلاً بنبرةٍ لئيمة: «الآن بدأتَ ترى الدنيا كما يجب». ولكنِّي بكيتُ طويلاً عندما وجدتُ مساءً في جيب بنطالي رزمة نقودٍ خمّنتُ مصدرها، وسبب وجودها.

مرّ أسبوعٌ على المرحلة الأولى من تنفيذ الحكم، بدأتُ أتأقلم فيها بشكلٍ مرضٍ مع وضع نظري، وأصبح لزامًا عليَّ أن أنتقل إلى المرحلة الثانية من تنفيذ الحكم، لذا فقد ألزمتُ نفسي بإغماض عينيَّ ساعتين يوميًّا.

كانت هذه المرحلة أصعب من السابقة، لكن سريعًا ما تعوَّدتُ عليها، لا سيّما في ضوء ارتياحي فيها، وارتفاع نسبة أرباحي من الأوراق الموقّع عليها بموافقتي، بل إنِّي كنتُ غير مضطرٍّ للالتحاق بعملي كلّ يوم، إذ إنّ الأوراق كانت تأتيني يوميًّا إلى البيت لتذيلها بموافقتي السامية، مع علاوات وحوافز العمل الإضافي التي كانت تُصرف لي تحت بند مياومات وأعمال خارج الوزارة.

المرحلة الأخيرة كانت العمى الكامل، الحقيقة أنِّي لم أنتقل إليها وفق الخطّة المقرَّرة، بل وفق الضرورة والتَّعوُّد، حتى

أنِّي لا أذكر متى بدأتُ في الانتقال إليها، فقد وجدتُ نفسي أعيشها دون قفزةٍ انتقاليّةٍ أخيرة، والأمانة العلميَّة تقتضي أن أقول: إنَّ مصادر أمنيَّة رفيعة أبلغتني بمباركتها لهذه الخطوة السعيدة التي تتوافق وخطّة المرونة التي تنتهجها الدولة في مساعيها لمحاربة البيروقراطيَّة والفساد، ومحاربة شعاراتٍ أخرى لم أحفظ منها شيئًا، مع أنِّي كنتُ مقتنعًا بضرورة حفظها لترديدها عند الحاجة.

أصبحتُ أعمى تمامًا، ولم أعد أفكِّر أصلاً بالرؤية التي كانت تسبِّب لي المشاكل والهموم، وغدوتُ محظوظًا بعملي أكثر من مصطفى المسكين الذي ما عدتُ أبالي به أبدًا، وبتُّ أقول لنفسي، وأنا أهزُّ كتفي غير مهتمٍ كلَّما خطر في بالي، وقليلاً ما كان يخطر: «له اللّه، هو المتكفِّل بعباده...»، وسريعًا ما غدوتُ أقول مخاطبًا نفسي العمياء «كما ذنبي أنا فيما هو فيه! هذا قضاء اللّه وقدره»...

وقضاء اللّه وقدره اقتضى أن تتحسَّن أوضاعي سريعًا، وأن أُعيَّن بقدرة قادرٍ وزيرًا في إحدى الوزارات، وأن أصبح شخصيّةً مرموقةً ترى بنور بصيرتها، وأن أنسى تمامًا قضيّة العمى والإبصار.. أُعلّق على باب مكتبي في الوزارة لافتةً كُتب عليها بماء الذهب لردّ الحسد بناءً على توصيات أمي: «هذا من فضل

ربي». ثم استبدلتها بلافتةٍ أخرى كُتب عليها بالحبر الصيني الجاف بعد بارقة احتجاج صحفي على استخدام المؤسسات الحكوميَّة ماء الذهب في إعلاناتها ولافتاتها: «هذا بفضل حادثٍ مؤسفٍ سعيد جدًّا». فاقتلاع عين مصطفى غيَّر حياتي وحياته إلى الأبد، يؤسفني إلى حدٍ ما أن أقول: إنّ حياته قد تغيَّرت إلى الأسوأ، وإن كان يسعدني ويجعلني لا آبه به أنّ حادثة عماه قد كانت طالع سعدي، فهي التي فتحت لي أبواب الحظّ على مصاريعها، ونقلتني إلى دنيا السعادة بعد شقاء طويل كان البصر والعناد السببين الوحيدين فيه، أمّا بعد العمى فقد أصبحت الحياة أرحب، والمواصلات أقلّ ازدحامًا لا سيَّما أنَّني بتّ أملك سيارة فارهةً بسائق خاص، وباتت مشكلة الإسكان محلولة، بل طرأت عندي مشكلة الغرف الشاغرة في قصري، مما استوجب أن أُعيِّن عددًا كبيرًا من الخدم لشغلها.

أمّا فيما يخصّ راتبي المتواضع فقد تضاعف مئات المرّات وفق نشاطي وتفهُّمي للأمور التي كنتُ قاصرًا عن فهمها في الماضي، ولم تعدْ عندي مشكلة في التفاهم مع مديري، إذ أصبحتُ مديره الأعلى.. ووليّ نعمته... ودمتم..

# زاجر المطر

يصمّ عينيه، يرهف حواسه التي صقلتها الدُربة، يغمس سبابته في لعاب فمه، ثم ينصبه في اتجاه الهواء، الذي يحدِّد بملامسته الرقيقة لأصبعه مساره، يراقب الأفق الغربي، ثم يقول: «إنّ المطر سينزل بعد ساعة أو يوم أو لحظات»، فيصدق قوله، ويوافي المطر ميقاته الذي ذكره زاجر المطر، أو يهزّ رأسه يمنة ويسرة بإيماءة استعراضيَّة هادئة، ويقول بلا مبالاة: «لا أمطار في الوقت الحاضر»، ويولِّي دون أن ينتظر هبة أو هدية بشارة، فهو يعرف أنّ لا فلاح يرغب في مهاداته بعد أن أقنطه من نزول المطر في القريب، وإن كان لا يبالي أصلاً في هدايا الفلاحين التي لا تعدو أن تكون بضع بيضات بلدية، أو صندوق خضار أو فواكه، أو بضعة قروش يصرُّونها بحذر واهتمام، وهو في الوقت نفسه لا

يبالي بهدايا الأقارب والمعارف والأصدقاء، التي غالبًا لا تفضل عدمها، فهي هدايا تعبِّر عن ابتهاج وانبهار بموهبته الاستثنائية، أكثر مما تعبِّر عن ابتهاج أو عن اغتمام بقدوم المطر أو بانحباسه، فهم حَضَر لا يعنيهم المطر بشكل مباشر، ولا يتجاوز اهتمامهم به تدبّر لباس الصباح، أو توقيت مواعيد الدعوات، ورحلات نهاية الأسبوع، لذا بات يكتفي بإعجاب الحاضرين وثناء الحسنوات على موهبته، هبة التنبؤات المطرية، وسرعان ما غدا ممارسًا لهواية زجر المطر لإسعاد نفسه، ولبعثها على الاعتقاد بقدراته التي تمخضت وتقلَّصت وتمدَّدت لتتلخَّص في القدرة على التنبؤ بقرب سقوط المطر.

يرفض أن يُسمى زاجر المطر كما كان يسمي أهل أصقاع الخصب في أقصى جنوب الجزيرة صاحب موهبته، التي تُحصّل بالتمرس وباستعداد فطري خاص لإرهاف الحواس، وحذق الإصغاء لهمس الطبيعة، ولإرهاصاتها ولتحوُّلاتها ولتبدُّلاتها، فهو يعلم أنّ زجر المطر ليس بمعنى أو بآخر قدرة على إنزال المطر، ولكنَّه موهبة فريدة في توقّع نزوله، وإن كان يستسلم مبتهجًا في معظم الأوقات، مغيضًا في بعض الأوقات للقب زاجر المطر، فهذا اللقب يورثه حنقًا وسخرية عندما تضيق الأحوال، ويمدّ يديه ليصبّ جيبًا فارغة، لا تحوي ولو في أحسن الأحوال قرشًا واحداً.

لا يتذكّر بالتحديد إن كان جاء من بلاد الخضرة والماء يبحث من عمل، أم أنّه آبَ عائداً مخذولاً من بلاد الخضرة والماء بعد أن هاجر إليها بحثًا عن العمل، لكنَّه متأكِّد تمامًا من أمرين، الأول أنّه لم يوفِّق أبدًا في تحصيل لقمة عيشه بطريقة كريمة ودائمة، والثاني أنَّه أعظم زاجر مطر في الدنيا بشهادة معلِّميه وأهل بلاد الخضرة والماء، وإن قصّر لقبه المجيد وموهبته العبقرية دون أن يشبعا معدته الجائعة، أو يؤمّنا لقمة يومه.

يستطيع أن يدَّعي أنَّه لا يبالي بفاقته، ولا بحاجته، ولا بسوء طالعه، ويستطيع أن يجد من يصدِّق ادّعائه، ولو بتحفُّظ. للدقّة يستطيع أن يدَّعي أنَّه أسعد خلق اللّه، لكن كلّ ادعاءاته لن تحول دون تقلصات أمعائه جوعًا، ولن تمنع معدته من أن تعضّ على نفسها طلبًا للطعام، وتمرُّدًا على الجوع، لذا من الحكمة أن يقنِّن في ادّعاءاته، وأن يستمر في رحلة مطاردة لقمة العيش التي أضنت قدميه، وأقلقت حياته.

تمنّى لو أنَّ أستاذه العجوز الذي علّمه موهبة التنبؤ بالمطر كان قادرًا على تعليمه أيّ موهبة أخرى، تفتح عليه أبواب الرزق مثل أن يزجر الحظ، فيأتي إليه منقادًا بعد خصام طويل، أو أن يزجر الموت، فيبتلع جارتهم نعمات اللعوب التي ما تفتأ تخون

زوجها العجوز على مرأى من عجزه وقلة حيلته، أو أن يزجر الحياة فترتدّ سحراً في رُفات أبيه، فتوقظ الحياة فيه ليكتنفه بعطفه، وليرحمه وأخوته من أن يصبحوا إرثًا يتقاسمه الأعمام والعمات على هون وكره، بعد أن رحلت أمه الأرملة، لتندسّ في حضن زوج أرمل صمّم بخلافها على أن يحتفظ بأولاده في بيته، وأن يشتري لهم خادمة ليل نهار بعقد زواج أبدي.

تمنّى أن يزجر الحبّ والرحمة فينصبّان في قلوب أهل سهام ذات العينين العسجديتين، التي حُرم منها فقط لأنَّه فقير، وأُرغم على أن يودِّعها، وهي ترحل إلى حضن رجل ميزته الوحيدة أنَّه صاحب دراهم وأموال، أو أن يزجر التجارة الحلال فيكفّ أبو وسيم المرابي عن امتصاص عظام المستدينين فضلاً عن دمائهم، نظير أمواله التي يقدِّمهم لهم ليستردها أضعافًا مضاعفة، مستغلاً حاجة المحتاجين وضائقة الغارمين. أو أن يزجر الأحلام فتأتي حقيقة تتلوَّى واقعًا أمام عينيه، وتهبه السعادة المؤجلة والأمنيات الملغاة.

لكن في النهاية عليه أن يستغني عن أحلامه وتمنياته، وأن يسلِّم لحقيقة أنَّه زاجر مطر لا غير، يجيد هذه المهنة في حين يعجز عنها معظم البشر، وإن كان للأسف لا يجيد معظم ما

يجيده كلّ الناس. الظروف مسؤولة عن غالب خرقه وقلّة حيلته وفساد حظه، ويأسه وقنوطه، وهو مسؤول عن الجزء الأخير، والأقل من مآل حاله، باستثناء انتصار قسمته في التحصيل الدراسي، فقد كان الأول في صفّه منذ أن بعث به عمه إلى المدرسة متجاوزاً عن رغبته في استخلاصه لمهنته، وضارباً عرض الحائط برغبة زوجته التي أرادت أن تجعله خادماً بالسخرية لبنيها وبناتها. في السنة المدرسيَّة النهائيَّة حصَّل معدل ٨٥,٥ ٪، وعُدّ فريد عصره، وخريدة أوانه في أعين الأقارب وأبناء العمومة، لكن فقره وقف من جديد أمام طموحه، وأسبغت عليه زوجة العم التي ضُرب مراراً ليدعوها أمي نكاية به لقب أجود الهبيلة، فلصق اللقب به، في حين بقي غيظ الأمّ المزعومة يحرق جنباتها دون أن يغادرها، ودون أن يفلح مرة في الانتقام منها، وفي ردّ لقبها السخيف إلى نحرها الغليظ، إلاّ في مرة واحدة كانت الإرهاصة الأولى لموهبته. أنفه عندها كان يعبق برائحة المطر، كان متأكّداً من أنّ عاصفة ماطرة تلوح في القريب على الرغم من صفاء الجو، كاد يخبر الكلّ باقتراب نزول المطر، لكنَّه سَرّ ذلك في نفسه لكي يضيِّع على زوجة عمه فرصة جمع البقول والخضار التي أفنت الصيف في جمعها، وتقليبها تحت الشمس تمهيداً لتخزينها.. وجاء المطر شآبيب ضخمة، وفسدت كلّ

بقولها وخضارها، واغتاظت زوج عمّه إلى درجة التجديف والبكاء، في حين انخرط هو في رقصة ابتهاج مهللاً، غير مبالٍ ببصقها عليه، ولا بتشديدها على اتهامها له بالهبل.

عاد من أرض الخضرة لا يحمل إلا الفقر وزجر المطر، على الرغم من أنَّه بحث طويلاً عن عمل دون فائدة، إلى أن صدفه العجوز ذو العينين الصقريتين، توقف بمحاذاته، تأمَّل سكونه، ثم قال: «يا هذا، ماذا جئت تطلب في هذه الأرض؟»

ـ «جئت أطلب عملاً، أأجد عندك عملاً؟»

ـ «لست في حاجة إلى عمّال، ولكن أستطيع أن أؤمّن لك المأكل والمشرب والمبيت مقابل أن تتعلم منِّي».

ـ «ماذا تريدينني أن أتعلَّم منك؟»

ـ «الآن تعرف إن قبلت بالاتفاق».

ـ «لكن...»

ـ «دون تردُّد...»

وافق يومها على أن يتعلَّم علم العجوز، لا رغبة في علمه، ولكن رغبة عن الجوع وعن المبيت على الأرصفة. في أشهر قليلة من التعلُّم الذي وافق مواهبه واستعداده الفطري غدا زاجر المطر،

ما كان يعلم في أيّ المجالات يمكن أن يسوّق قدراته، وإن كان حسبه أن يخرج بعلم فريد غريب، قد يستعمله مثلاً في الشعوذة أو السحر الذي نعاه أستاذه طريقًا للكسب، وحذَّره من مغبة اتباعه لأنَّه سيكون قطيعة لا وصل بعدها بينه وبين زجر المطر، فأسقط في يده، وقبل بالإياب إلى موطنه غنيمة.

ولأنَّ لا أحد في المدن معني بانتظار المطر فضلاً عن التوقُّف والتحديق في زرقة السماء، فإنّه لم يجد له أيّ عمل يليق بقدراته الخارقة، قدِّر أن بعض الدعاية ستفيده، أنفق ثمن قلادة المطر التي أهداه إيَّاه معلمه على بعض الإعلانات التي بثّها في المجلات والصحف، يتنبأ فيها بقرب هطول المطر، أو ببعد ذلك.

لكن أحدًا لم يبالِ به، علّق برقبته بطاقة تعريفة مكتوب عليها «زاجر المطر» بخط أنيق وواضح، واندسّ في جموع الكثير من الأندية الطلابيَّة، والمؤتمرات الحزبيَّة، والتكتُّلات الوطنيَّة، حتى أنَّه اندسَّ في منظمة الرفق بالحيوان، وجمعية إعمار كلكتا، ودائرة مناهضة الإرهاب الجنسي، ومنظمة «لا لضرب الزوجات»، ومؤتمر العقم الدولي، ورابطة القلم الحرّ، واستديو التصوير الحرفي. أمضى الساعات في متابعة برامجهم، قدَّم أوراق

عمل متعدِّدة تبرز قيمة المطر، وأهمية التنبؤ به في دعم برامجهم الخيرة، أفنى الساعات في مساجلات طويلة حول أهمية دوره الريادي المفترض في أيّ مؤسسة ستتبناه، ولكن دون فائدة، فلا مكان في الدنيا يرغب في زاجر مطر حزين، يملك أنفًا سحرية تشتم رائحة الماء من على بعد سنين ضوئية.

بتوصية هاتفيَّة متواضعة من إِحدى الرئيسات المسنَّات في منظمة المشاريع الصغيرة التي أبدت إِعجابًا خالصًا في تكوُّر فخذيه، وفي اتساق أعضائه السفلى، حصل على وظيفة موزّع صحف يوميَّة، وبتوصية منها كذلك حصل على دراجة هوائيَّة قديمة، يذرع بها الشوارع الفخمة وعمارات الشقق الفارهة بين الدارات الكبيرة والقصور المشيدة، والمتاجر ذات البضاعة الثمينة التي لا يحلم يومًا باقتناء واحدة من معروضاتها الثمينة، يدسّ الصحف في الصناديق المعدنيَّة المخصَّصة لها بالقرب من أبواب حدائق الدارات والقصور وعمارات الشقق الفارهة،ثم يولّي لا يلوي على شيء.

كان الأجر قليلاً، وإِن أدّى حاجاته الرئيسة، وحال دونه ودون قرصات وركلات معدته جوعًا، وفي ضوء هذا التقدُّم الكبير الذي أحرزه لصالح معدته، فقد سمح لنفسه في أن

يؤمِّلها بالحصول على سيارة نقل قديمة ينقل بها الصحف، بدل التقوُّس خلف مقبضي الدراجة الهوائيَّة التي قصفت صدره، وأضنت قدميه في عذاب يومي متجدِّد لا ينتهي، مع أنَّه كان يعلم أنَّ أمنيته الصغيرة تبرق في البعيد دون وابل مطر، فهو صبي الجرائد، وسيبقى صبي الجرائد بعد أن كاد ينسى لقب زاجر المطر؛ فلا أحد يرغب في الفقراء المستضعفين، لاسيَّما أصحاب الوجوه الكالحة، والقسمات الشاحبة، والبنيات الضعيفة، حتى النساء الجميلات المترفات في ضواحي المدينة التي يذرعها ذهابًا وإيابًا في فترات عمله كانت تزدريه، وتضنّ عليه حتى بابتسامة يتيمة أو نظرة عابرة إزاء كلمات إعجابه ومغازلته التي يمطرهن بها، فينزلق خجلاً في ثيابه إثر تجاهلهن له، محتقرًا نفسه، ضاربًا صفحًا عن كلّ التجاهل الذي مُنيت رجولته به، إلاّ من لحظة انتعاش صادفها في عيني فتاة العرض التي نُصبت في واجهة متجر الثياب النسائيَّة الذي افتُتح منذ أيام، وحضر افتتاحه وزير إحدى الوزارات، والكثير من أصحاب السحن الممطوطة، الذين يطالع صورهم في صفحات الصحف التي يوزّعها في كلّ صباح.

كان متجر الثياب ذا واجهات زجاجيَّة، وأرضيَّة رخاميَّة، وباب دوّار كبير، على عتبته حوضا رخام كبيران، زُرعت فيهما

زهور ملوَّنة لم يعرف مثلها في حيه الفقير، حسبه أن يميّز بين زهور الجوري وزهور الياسمين، أمّا هي فكانت مصنوعة من اللدائن الصافية، مسكوبة في قالب غاية في الدقّة، يداها وقدماها تتمثَّلان الليونة المتناسقة، خصرها الأهيف يكاد يُهصر لدقته تحت الأحزمة الملونة التي تتناوب على لبسها مع كلّ ثوب من أثواب الموضة التي تعرضها بتتابع يوافق آخر صرعاتها، وأحدث تجديداتها، شعرها أسود متموِّج، وأحيانًا يكون أشقر مسترسلاً أو مهفهفًا، يعتمد لونه على الشعر المستعار الذي تغيّره الموظفة المعنية بذلك وَفْقَ ما تعرضه من ثياب على فتاته البلاستيكيَّة، التي تلزم مكانها في واجهة المتجر الزجاجيَّة، لا تفارقه أبدًا، إلا إذا حُملت بعيدًا لكي تبدِّل ملابسها وشعرها المستعار، ثم تعود إلى مكانها ملكة ساحرة متوَّجة فيه؛ إذ إنَّه لا يبالي بطبيعة الشعر أو بلونه، إنّما يبالي بعينيها الجميلتين، فهي تملك أجمل عينين زجاجيتين رآهما في حياته، فيهما حب وعطف ورحمة لم يرها يومًا في عينيْ امرأة من بني البشر، ولذلك عشقها، عشق جسدها البلاستيكي ذا الأديم العسلي، عشق عينيها الساحرتين، وعشق قلبها الذي يدقّ بحبّه.

اعتاد أن يراقبها كلَّما مرّ أمامها صباحًا أو مساءً في نوبات عمله، ثم استنّ سنة لزمها طوال الأيام، فما ينتهي عمله حتى

ينطلق إليها، يركن دراجته بالقرب من المتجر، ثم يجلس في مقعدٍ خشبي مواجه تماماً للواجهة التي تنصب فيها محدِّقة في البعيد، يأكل شطيرته الأولى بعد يوم مضنٍ، وهو يراقبها، ثم يتفرَّغ لحديث طويل معها، يحدِّثها عن كلّ شيء، عن فقره عن عجزه، وعن زجر الأمطار. تحدِّثه عن عالمها البلاستكي اللدن، تُسرّ له بأحلامها وأمنياتها، يهشّ إليها فتحنو عليه، يتمنّاها فتحلم به، تحدِّثه عن عالمها فيعشقه، ويتمنَّى الولوج فيه، يحدِّثها عن عالمه فتكرهه، وتتمنَّى أن تنتشله منه.. ينتظمان في عشقهما وأمنياتهما، كلّ الخلافات مسوّية، كلّ الأمور مُتَّفق عليها، لكن تبقى معضلة صغيرة، توقفا عندها مجبرين، فمن منهما سوف ينتقل إلى عالم آخر؟ بُهتا مفكرين في إجابة، يطول الصمت لأيام، يرسل لها باقة زهور لعلّها تسعفها بقرار حكيم، لكن موظفي المتجر يرفضون إيصالها إلى المرأة البلاستيكيَّة التي يعشقها، ويتهمونه بالجنون، فأنَّى لرجل أن يعشق امرأة تمثال؟! يصمِّم على أن تصل الزهور إلى حبيبة قلبه، لكنَّه يُطرد كفأر صغير، بعد أن يُهدّد باستدعاء الشرطة له، فيكتفي بأن يسجّي باقة الزهور خارج المتجر إلى جانب الواجهة الزجاجيَّة التي تفصله عمَّن يحب. ابتسامة امرأته، ونظرة عينيها الحانيتين اللتين توجهما نحوه على ما في ذلك من خرق لجمود وصمت عالمها..

تخفِّفان من حزنه، ومن إشفاقه على زهوره التي داستها أقدام زبائن المتجر، الذين لا يبالون بزهور تسحق تحت أقدامهم في غمرة متابعتهم لأحدث ثياب الموضة المعروضة في الواجهة الزجاجيَّة.

أحد الزبائن يحدِّق أكثر مما يجب في جسد امرأته البلاستيكيَّة. غيرةٌ مجنونةٌ تجتاح كيانه، فليس من العدل أن يقاسمه أحد رجال الدنيا في امرأته البلاستيكيَّة، الوحيدة التي عشقته، في حين هجر كلّ نساء الدنيا. يغادر الرجل المكان، ونار الغيرة لا تزال متأجِّجة في روح زاجر المطر، تهمس الحبيبة له ببشرى، وتؤمِّله بقرب الفرح.. فقد وجدت حلاً نهائيًّا لمشكلتهما، قرَّرت أن تدعوه بعد تفكير طويل إلى الدخول إلى عالمها، حيث الحب والسعادة.. فكَّر قليلاً، ووجد لقبه مانعًا دون الموافقة، ولكنَّها قالت مبتسمة بصوتها الرقيق المحمّل بليونة البلاستيك «وما المشكلة في ذلك؟ فهناك أيضًا ستكون زاجر المطر، بل إنّك ستجد هناك من التقدير والاحترام ما لم تجده في عالمك الراهن».

«ولكنَّني زاجر المطر» ردّ قائلاً. ابتسمت، وقالت بعد أن خطت خطوة إلى الأمام، وألصقت فمها بالواجهة الزجاجيَّة،

وطبعت له قبلة على الحائط الزجاجي الذي يفصلهما: «وليكن، فأنا أحبّك، لقاؤنا غداً». ثم ارتدت إلى مكانها على عجل، إحدى المسنات ترقب حركتها غير مصدِّقة ما ترى، مشكِّكة في عقلها، ثم سرعان ما تخلع نظارتها، وتطالعها، لعلّ خللاً فيها قد خُيِّل لها أنّ امرأة بلاستكية قادرة على الحركة وعلى الكلام وعلى التقبيل.

لم يمر بها صباحًا كعادته، أجَّل ذلك إلى حين يصفَّي مسائل عالقة في هذا العالم، وما أقلها من مسائل! تلخّصت في توديع أخوته وأخواته هاتفيًّا، وسبّ زوجة عمه في رسالة تهكم طويلة أرسلها لها مع فتى الفرن الذي يسكن بجوارهم.. ثم حرق كلّ كتبه القديمة، إذ إنَّه لا يعرف أحداً قد يرغب في قراءتها، ثم تسليم الدراجة الهوائيَّة للمؤسسة الصحفيَّة التي يعمل فيها، دون أن يسوِّي معهم أمر راتبه، فالشهر على أبواب نهايته، وهو على كلّ حال لن يحتاج إلى المال في العالم الجديد الذي هو في صدد الدخول إليه، فضلاً عن أنَّه يريد أن يغادر هذا العالم الذي أضناه حرمانًا، وهو يملك فيه ولو راتبًا حقيراً لم يقبضه.

لبس أفضل ما عنده، للدقّة لبس كلّ ما عنده للمناسبات السعيدة، وما أقلها من مناسبات!! كان لباسًا قد ورثه عن أستاذه

الفاضل، وهو أقرب ما يكون إلى لباس مهرج يريد أن يبدو شريراً في حفل تنكري، لباس له ياقة لامعة، وقبعة زرقاء. وقف أمام امرأته التي بدا القلق والشحوب على وجنتيها البلاستكيتين.. ابتسم لها، فردّت بابتسامة، قال لها: «اشتقت إليكِ!»

ـ «أنا أكثر اشتياقًا... هل أنت مستعدّ»؟

ـ «مستعد تمامًا، ولكن ليس قبل أن أهبك مهرًا لم تحصل امرأة على مثله من قبل».

سألت بتحمّس: «ما هو»؟

أجاب بفخر وثقة: «أهديك المطر».

ضرب بعصاه الأرض، صمّ عينيه، قرأ ترنيمة عجيبة، فعجَّت السماء في لحظات بسحب سوداء، ثم تكاثفت إلى حدّ أنّها حجبت نور الشمس، وأغرقت المكان في ظلامٍ دامس، ثم أرعدت وأبرقت، بدأت شآبيب المطر في تفريغ حمولتها، المطر المفاجئ داهم الكلّ، وشلَّ حركتهم. في غمرة الانشغال في إيجاد ملجأ يقي من الامطار، نظر زاجر المطر يمنة ويسرة، عدَّل من وضع ربطة عنقه، ضغط بيديه على قبعته كي لا تُفقد في رحلة العبور المستحيلة، ثم انطلق مسرعًا نحو الواجهة الزجاجيَّة، اخترقها بجسده، كان الاختراق مؤلمًا، لكنَّها كانت هناك في

انتظاره، طيف من الألوان التي لم يعرف مثيلاً لها في عالمه تراقص في عينيه، شعر بتراخٍ يدعوه للانسياح في حضن امرأته، كان سعيداً؛ لأنَّه زاجر مطر محظوظ بحبه، وقادرٌ على التنقل بين العوالم.

في المساء كانت المدينة غارقة في أمطار عجيبة اجتاحتها في غير موسمها، فأفسدت كلّ شيء، وأعاقت الحركة، ومنعت الجميع إلا قلّة من حضور جنازة زاجر المطر الذي مات إثر حالة جنون مفاجئة، دفعته وَفْقَ تقرير الطبيب الشرعي إلى اختراق جدار زجاجي. كان على شفتيه ابتسامة غريبة، لم يكلّف أحد من المشيعين نفسه في فكّ سرِّها؛ فلا من يبالي بابتسامة زاجر مطر مسكين!!

# الجسد

أقسم ألف مرّة في نفسه أنّه لن يحنّ إلى أيّ جسد، لن يتمنَّى مخاصرة أيّ جسد، لن يتحرّق شوقًا لدفء أيّ جسد.. وهذا ما كان. على الأقل هذا ما يذكر أنّه قد كان. ولكنَّه منذ زمن ليس بالهين يتلمس دبيبًا خاصًا في خيوطه يدعوه بلا رحمة لاكتتاف جسد ما، ينبض به بعزيف الوحدة، يغريه بدفء الألفة، منذ أن خاض غمار قراره المشهود وهو يحترف الحرمان، لكنّ خيوطه وأزراره باتت تلّح عليه بالنسيان، وتحرِّضه على تجاوز قراره المشهود، وتؤنِّبه بجرم الهجران والتجنّي على حقوقها.

كان بنطالاً كتانيًّا عتيداً، خاض الكثيرمن المواقف الحاسمة في حياته حتى أنّه كان قد شارك قي الحملات

الانتخابيَّة التي خاضها حزبه ضد حزب القبعات، لا يذكر الآن اسم ذلك الحزب الذي كان ينتمي إليه، ولكنَّه متأكِّد من أنَّ مقرّ الحزب يقع في عمارة تطلّ على موقع سياحي وترفيهي مهم، اسمه نادي الدفء الليلي، آلاف الامتحانات خاض في حياته، لم يعرف التنازل، أتقن لغة الجسد.. هو بنطالٌ خاض المعركة تلو المعركة، وعاد مهزومًا المرة في أثر المرة، ورضي كما يقولون بالإياب غنيمةً، ولكنَّه يعتقد أحيانًا أنَّه لم يؤب بالغنيمة التي يطيب له أن يظن أنَّه آب بها، بل بقي عاشقًا مخضرمًا للغة الأجساد التي أرهقته وأضنته، وما استطاع للغزها فكًّا، ولا لعمقها سبرًا.

منذ أنّ أحبّ ذلك الجسد الذي هجره شعر بأنَّ جنباته قد تفتقت، وأنَّ لونه قد أصبح كالحًا، أزراره تدلَّت، ولم تعد مشدودة موثقة في مكانها كما كانت، عروته العليا اهترأت، وخصره بات متهدلاً مرتخيًّا، ونسي تمامًا الشموخ، وبات يعيش على ذكرى ذلك الخصر الأهيف الذي لطالما حاصره بكبرياء وإثارة. كان ذلك من سنوات، لكنَّه حتى الآن لازال يتعشَّق رائحة عرق الجسد الذي لطالما حضنه حدّ الالتصاق، ورافقه في كلّ مكان، وكان كلما فارقه ليلاً، ليستلقي قريبًا منه، يقطع ليله في الانتظار والشهوة. قدَّم له كلّ شيء حتى عندما أبلغه الجسد

برغبته في أن يجدِّد في نفسه، لم يبخل عليه بذلك، وقام بصبغ نفسه وتقصير طوله، ليبدو أكثر عصريَّة وأكثر قدرة على تتبّع آخر صرعات الموضة التي يمقتها.

ولكن كلّ ذلك تمخضّ عن لا شيء، وفي النهاية هجره الجسد إلى بنطال آخر، يومها أقسم أنّه لن يعشق أيّ جسد، ولن يعطف على أي عارٍ، وسيحبس نفسه وفضوله على نفسه ولا غير.. لكنَّ روحه تتوسَّل إليه في سبيل الحصول على جسد، تبحث عن وعاء يحتويها وتكونه.

قرَّر أن يطفئ بعضًا من أشواقه فقط بالتبرّد دون الشرب، خرج من بيته مسكوراً بمطلبه، كان الجوّ قائظًا، قصد سوق المدينة حيث تحتشد واجهات المحلات بالأجساد المعروضة للبيع، الملابس الصغيرة والكبيرة تملأ الشوارع، عجب كيف تسمح الملابس لأبنائها الصغار باللعب في الشارع في مثل هذا الجو؟ أحد القمصان الصغيرة كادت إحدى الحافلات المسرعة أنّ تجعّده تحت عجلاتها الكبيرة.

سريعًا وصل إلى السوق، أسرع مما توقع، وقف حائراً أمام واجهة المتجر الأول،كانت الأجساد المعروضة متعرِّقة، وتكاد تتقدَّد من الحرّ، لم تغره أبداً بالنظر إليها،كاد يشفق عليها،

ولكنَّه منع نفسه من أيّ بادرة شفقة، وذكَّر نفسه أنَّه لم يأتِ إلى السوق كي يوزِّع مشاعر مجانيَّة. ألحّ عليه المعطف صاحب المتجر كي يدخل إلى صالة العرض، ولكنَّه نظر إليه بتقزُّز، وضرب صفحاً عن دعوته المشبوهة.

كثيرٌ من المتاجر تعلن عن خصومات موسمية كبيرة على الأجساد لاسيَّما الكبيرة منها. تساءل أيّ موسم يقصدون؟ أيقصدون موسم رخص الأجساد؟ أم موسم التزاوج؟ أم موسم الحرّ؟ هو لا يدري، هزّ جيبه الأعلى، وقال بصوت غير مبالٍ قدّر أنّ بعض المارة قد سمعوه: «ومن يبالي؟».

على الأرصفة انتشرت بسطات العرض، كانت الأجساد متناثرة عليها بلا نظام، أجساد ملوَّنة، أجساد موشومة، أجساد مشعوعرة، أخرى حلساء ملساء، أجساد بكل الأحجام، نخب أول، وثانٍ وثالث، وبعضها معيب بحرق أو كسر أو خلع؛ لذا يُعلن عن تخفيضات إضافية عليه.

بحث طويلاً عن جسد يطفئ احتراقه، جسد يشعر أنَّه انتظره آلاف السنين، جسد لا يُعرض ولا يُزاود عليه، لا تتلمَّسه كلّ الملابس، تزدريه بعضها، ويزاود عليه بعضها الآخر، أرعبته النخاسة التي يراها في كلّ مكان. حمد اللّه لأنَّه خُلق بنطالاً ذا

احترامٍ وتقديرٍ، ولم يُخلق جسداً يُباع ويشترى وينزل سوق النخاسة في أيّ لحظة، ولا يجد أحداً يرثي لمصيره المشؤوم.

كم تمنّى أن تحظى الأجساد الملعونة بنفسها بشيءٍ من الاحترام، وأنّ تُصان كينونتها، ويُعلى من شأن وجودها. فكَّر بأنَّ ثورة جادة ستردّ للأجساد احترامها المهدور، وقد ترتقي بها إلى مصافي الملابس المحترمة، عندها قد تعود ثقته الضائعة بالأجساد، ويفتح خيوطه من جديد لاستقبال جسد ما، أمّا الآن فهو لا يعرف شيئًا.. لا يعرف سوى أنَّه يحمل في جنباته شعوراً يتمزَّق بين القرف والرثاء.

ابتعد عن سوق الأجساد، يمّم نحو إحدى الأزقة التي تدلف إلى الغابة التي تحيط بالمدينة، أحد القمصان يلّح عليه لشراء أحد الأجساد التي يحملها، يقيس أحدها على البنطال المأخوذ بآلامه، يؤكِّد القميص أنَّ الجسد يناسب مقاس البنطال، يعرض عليه أن يشتري جسدين بسعر جسدٍ واحد، بل يستطيع أن يحصل على ثلاثة منها بسعر واحد.

يشعر البنطال أنّ قرفه قد تضاعف، يشيح بنظراته عن القميص الذي ما زال يثرثر. يبتعد ليحلم بجسد لا يشتريه من سوق النخاسة، ولايأخذه بضربة حظ، بل غاية أمنياته الحصول

على جسدٍ يخلو من الدنس، لم يعرض في الأسواق، لم تبتذله الأيدي، ولم تشبع منه النظرات، جسد يخلص ويخلص... ويطوِّقه بسعادة إلى الأبد بعيداً عن سوق الأجساد.

وحتى ذلك الوقت سيعيش في حنين موصول إلى الجسد الذي لم يلتقِ به.. ومن جديد عاد يحترف الانتظار.

# الباب المفتوح

كان صوته يجلجل ملء قصره المنيف الخرافي ذي الأبواب الماسية، في قصره ألف جارية، وألف غلام، وفي سجنه المنيع ألف سجين، لكنَّهم ينعمون بالسعادة؛ لأنَّه أعدَّ لهم أسرَّةً من ماس، وطرائف وحشايا من ريش النعام أسوة بما في قصره، يقع قصره في منتصف السلطنة، بل السلطنة تقع في منتصف قصره الذي يقع في أرض ما، في زمان ما، قصته قصةٌ قديمة تمزّق عنوانها، وأرقام صفحاتها، ولم يبقَ منها إلاّ هو وشعبه السعيد . . هكذا تقول القصة، والويل للرعية إن لم تقل ما تقوله القصة. منذ سنوات لم يسر على قدميه، فقد اعتاد أن يحمله العبيد على محفّته الذهبيَّة التي أُعدت لتنقلاته، حتى عندما خرج في

حملة إحسان لجمع التبرُّعات لفقراء السلطنة وأيتامها.. وما أكثرهم! اعتلى المحفّة التي أمر أن يُكتب عليها بالذهب: «هذا من فضل ربي»، وفي عينيه كانت تتلألأ دموع الرحمة المصطنعة، وهو يرقب المواطنين الحفاة شبه العراة الذين يحيطون بمحفته المقدّسة.

كان يقرأ قصة قيل إنَّها لم تحدث، وقيل إنَّها حدثتْ من ألف عام، مصدر مسؤول صرَّح أنّها ستحدث بعد ألف عام، بعضهم همس وقال إنّ هذا القصة حدثت لأنَّ السلطان أراد ذلك، وطاعة اللّه من طاعة السلطان، الذي يصلِّي الفرائض في المسجد، كثيراً ما ينسى أنّ يتوضأ، لكن العبرة في القلب، وقلبه عامر بالحب والرحمة، وقيل إنّ نسبه الطيِّب يمتدّ إلى زوجة يوسف عليه السلام، بالتحديد إلى نسب مولاها الخصيّ الذي لا تذكر التواريخ أيّ شيء عنه. الراوي همس في أُذن البعض من الناس، وقال مبتسماً بخبث: «زليخة لم يكن لها أيّ عبد». في اليوم الثاني وجدوا لسانه يسعى مذعوراً بعد أن قُطع من غير سبب محدَّد.

سلطان الزمان كان يرفس سعيداً بقدميه، وهو يقرأ عن سلطانٍ في الزمن الغابر قال له أحد رعاياه المسمَّى سليمان

الفارسي: «لا سمعًا ولا طاعة، لانسمع»؛ لأنَّه خصّ نفسه بذراع إضافي من القماش دون رعيته، فلما ظهر عدله، وأثبت أنَّه أخذ ذلك الذراع من ولده عبداللّه، قال له سليمان الفارسي: «الآن سمعًا وطاعة، قل ونحن نسمع». وعندما لام الناس الرجل على فعلته قال لهم السلطان الخرافي في عدله: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها».

أعجبه ذلك الرجل العادل، وذكَّره بشيءٍ لا يعرفه، وبنكهة لم يذقها، انتفخت أوداجه سروراً، وكاد يهلِّل في مكانه، بل أن ينزل عن تخت ملكه، لكنَّ بطنه المتكوِّم أمامه أعاق حركته، بل إنّه منعه من أن يرى بروز أعضائه التناسليَّة التي عالجها طويلاً، ودفع ربع ريع أراضي الشعب لمشافي الواق واق حتى امتدت وتضخّمت كما يجب، وذلك فقط ليقوم بمهامه الجنسيَّة بشكل يرفع رأسه مع محظياته الألف، وهو حريص على قضية الرأس المرفوع؛ ولذلك يرفع رؤوس معارضيه على أعواد المشانق.

حدَّق في وزيره، وقال له: «ما اسم ذلك الرجل العادل؟»

قال وزير المدارك بثقة وهو يتمطّى: «لا أعرف يا مولاي، ولكن أعرف أنَّه من أمر بإحراق أهل الأخدود».

قال السلطان باهتمام: «ومن هم أهل الأخدود؟»

أجاب الوزير بلكنة الحكيم المثقل بعلمه: «أهل الأخدود من الشعوب الهندية التي ماتت في فيضان نهر بومباي في إيطاليا في عام مليون قبل الميلاد».

من جديد قرأ السلطان القصة على أسماع وزرائه، كان يوزِّع نظراته بينهم وبين ما يقرأ، شعروا أنَّ عليهم أن يبدوا سعادةً بما يقرأ السلطان، وأن يثنوا على ذوقه الرفيع في اختيار القصص. وفجأة قال لهم السلطان بحماس لا يقلّ عن حماسه الحيواني وهو يتلظّى ويذب لثاثته أمام موائد طعامه التي لا تعرف نهاية: «أريد بابًا مفتوحًا».

قال الوزراء بصوت واحد: «بابًا مفتوحًا!».

قال وزير الدين الذي لطالما سمع السلطان يضرط في الصلاة، ولم يعلِّق على ذلك بغير الدعاء بتقبَّل صلاته الطاهرة: «وماذا تعني بالباب المفتوح يا مولاي أعزك اللّه وأدامك عزًا لنا؟»

قال السلطان: «هذه القصة ذكرتني بسلطان قرأت عنه في سِفْر العالم السعيد، في مكان ما في الدنيا.. يفتح السلطان باب قصره للشعب، ولا يعيِّن حاجبًا على بابه، يكتب في قرطاس إلكتروني وبحروف كهربائيَّة جدول أعماله في ذلك اليوم، ومن

حقّ أيّ فرد من الرعية مهما قلّ شأنه وخمل ذكره أن يقرأ ذلك الجدول، وأن يحاسبه إن رأى أنَّ في برنامجه ما لا يخدم المصلحة العامة، وذلك من خلال رسالة خطّيَّة يوجِّهها إلى السلطان، الذي عليه أن يردّ على رسالة المواطن في موعد لا يتجاوز مسيرة يوم. وذلك السلطان أوعز إلى كاتب ديوانه أن يطلق على هذه السياسة (سياسة الباب المفتوح)، لأنَّ أبواب قصره لا تُغلق في وجه رعيته! وأنا أريد أن أطبِّق هذه السياسة مع الرعية.

عجب الوزراء مما سمعوا، وشعروا بالقلق من هذه السياسة، ولعنوا في دواخلهم ذلك الباب الذي سيفتح عليهم أبواب جهنم ويغلق دونهم أبواب الجباية والحرب والاستعباد. في اليوم الثاني ركب وزير الأخبار حماراً أخضر، وحمل صبيانه الطبول، وأعلن على الملأ أنّ السلطان أدام اللّه عدله قد استحدث مشروعًا وطنيًّا أسماه (الباب المفتوح).

في اليوم الأول لم يخرج أحد من بيته خوفًا من عواقب هذا المشروع، أمّا في اليوم الثاني فقد خرج فقط الأوباش وقاطعو الطرق طمعًا في سرقة الباب، لأنَّه مفتوح، بعد ذلك مرّ الكلّ من أمام الباب، ولم يجرؤوا حتى على الاقتراب منه فضلاً عن قراءة جدول أعمال السلطان؛ فهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك، كان

يكفيهم أن يفتحوا الصفحة السابقة من قصتنا هذه حتى يعرفوا برنامج السلطان.

انتظر السلطان طويلاً وطويلاً أن تأتيه رسالة من مواطن ما، وتخيَّل كم سيستمتع بعبثه مع مرسلها، وطال انتظاره، ولم تصله أيّ رسالة، عندها غضب بشدّة، وأمر أن تُرسل له الرسائل وإلاّ سيغضب ويخسف الأرض برعيته، ويجعل ماءها غوراً، ويسقط سماءها قطعًا. سمعت الرعية عن غضب السلطان واشتدّ رعبها. في تلك الليلة وصلت إلى السلطان رسالة صغيرة، كُتبت بيدٍ فضولية، فضّ السلطان الرسالة على عجلٍ وبفضولٍ، وأمر كهرمانه أن يقرأها، قرأ الكهرمان الرسالة بعينيه، ثم ابتسم، ثم شعر بقلق حيال ما سيقرأ، وللحظات شعر أنَّه سيكون أوّل ضحايا الباب المفتوح، قال السلطان له: «ما بالك ؟ اقرأ...»

بلع الكهرمان ريقه، وبدأ يقرأ ما ورد في الرسالة التي كُتب فيها: «مولاي أنا ابن المزارع دهبور، عمري تسع سنوات، أريد أن أعرف لماذا منعتَ الرعية من شرب الحليب مع أنّه مفيد للصحة، أحقًّا إنَّك تملك بحيرة من الحليب تسبح فيها محظياتك لينعمن ببشرة جميلة؟».

ضحك السلطان طويلاً مما سمع، ثم صمت، ثم أزبد وأرعد، وأعلن أنّ سياسة الباب المفتوح قد عُلّقتْ إلى الأبد، لأنَّ الباب سيغلق. وعلى بابه أُعدم ألف طفل ثبت أنَّهم يشربون الحليب في الأحلام، والمحتجُّون على استحياء كبّلهم جنود السلطان بأغلالٍ وسلاسل من ذهب، ثم أرسلهم الى قصة أخرى، وكان حريصًا على أن يكون في قصتهم وحوشٌ كاسرة وأرضٌ بلا لبن.. وقلب الصفحة.

سكت الراوي عن الكلام غير المباح، ولكنّ الجدّات بقين يحدِّثن الصغار وبالسرّ عن الأطفال الذين أُعدموا، لأنَّهم حلموا بالحليب الذي تستحم به جواري السلطان.

# ملك القلوب

البعض يقول إنَّه مبروك، وإنَّ له كرامات مع أنَّهم لم يروا له يومًا ولو كرامةً واحدة، البعض همس إنَّه لا يصلِّي أصلاً لكي تكون له كرامة الأولياء والصَّالحين، همس فضوليُّون ضاحكون إنّه على دينٍ عجيب تدين به مردة الجان، بعض النساء تستعيذ منه، وتعدُّه ممسوسًا أو على أفضل تقدير على علاقةٍ مع الجان، إحدى عواجيز البلدة زعمت مرّةً بضحكةٍ تنزّ عن سنِّها الوحيد الذي نخره السوس بلا رحمة أنَّه من ذراري الغجر، وبقايا بني ساسان، أما هو فلم يكن يصرِّح بالكثير عن نفسه، بل يجيب عن الأسئلة الفضوليَّة بقهقهةٍ مجلجلةٍ تبرز ترقوته، وتهزّ معطفَيْه، وتبرز شفتيه الغليظتين الغارقتين في لحيةٍ شعثاء مثل غابةٍ شوكيَّةٍ، فيردِّد الكهف الذي يسكنه ضحكته، وجملته المعهودة، «افتح

كـفّك اليـمنى، وصـفٌّ قلبـك... وأظهـر بيـاضـك، وكلّه عـلى ربّك».

لا أحـد يذكـر تمامًا متى ظهـر في هذا المكان، حـقـيـقـةً لا أحـد معنيٌّ بالتـذكُّر، فالكلّ ضـائعٌ مُضاع، حـتى أنَّه كـاد ينسى من أين لـه بهـذه الـعـبـاءة الحـمـراء المقـصَّـبـة بـالذهب، ولا أيّ الأسواق دفعت له بهذه القبعة العظيمة التي تشبه قبعات ناسكٍ من السِّيخ، كلّ ما يذكره أنَّه ملك القلوب، يأتيه الشاب وقد خلا قلبه من الحب فيعطيه تعويذةً في قطعةٍ جلديَّةٍ أو قماشيَّةٍ ملوَّنة، وما يحلّ المساء إلاّ ولذلك الشاب حبيبة، تأتيه النساء بقطعٍ من ملابس رجالهن المهاجرين أو الغائبين أو المُعْرضين، فيعطيهن تمائم سحريَّة، تعيد الغائب، وتردّ المهاجر، وتُسيل شهوة المُعْرِض.

بعض الحالات تستعصي على تمائمه السحريَّة، فيُعدّ لذلك الشرابَ السحري الذي يحضِّره من منقوع أيّ شيءٍ أحمر، فليست العبرة في المادة التي يحضّر المنقوع منها، بل العبرة في تمتماته السحريَّة، وتعاويذه التي حفظها من سِفْر الحب الأعظم عندما كان يتَتَلْمذ على يديّ ذلك الساحر المغربي الذي يسكن تخوم جبل قاف.

لم يكن تلميذه الوحيد، ولكنَّه كان تلميذه المفضَّل، لطالما استبشر أستاذه خيراً به، وقال إنَّه سيكون خليفته على عرش السحر الأسود الأعظم، ولكنَّه لم يكن يريد سحراً أسودَ، يُحزن القلوب، ويدمي الأنفس، ويُفرِّق المحبِّين. لقد كان يريد سحراً يستطيع أن يسرق السعادة ليهبها لكلّ محتاجٍ ومتمنٍّ.. وبهذه الرغبة بالذات سوَّغ لنفسه أن يخالف أوامر أستاذه، وأن يطَّلع على سِفْر السّحر الأعظم، وأن يحفظ عن ظهر قلب تمائم الحب، وتعاويذ جلبه. عن ظهر قلب حفظ كلّ كلمةٍ مكتوبةٍ، شعر أنَّ هذه الكلمات السحريَّة العذبة قد زُرعتْ في قرارة وجدانه للأبد، وأنَّها أزهرت حبًّا وعشقًا يكفي كلّ الدنيا، تشبَّعت كلّ خليّةٍ من خلاياه بوقع الكلمات السحريَّة، وامتلأت نفسه نشوة لم يعرفها من قبل، وكاد الأمر يمرّ دون أن يعرف الساحر المغربي بسطوه على سِفْره العجيب، لولا أنَّ أريج كلماته، وهسيس صوته قد نقل للمغربي وشايةَ سرقته. غضب الساحر كما لم يغضب من قبل، وحاول أن يمتصّ بسحره الكلمات الخالدة التي حفظها تلميذه الخائن، ولكن دون فائدة، فالكلمات ذابت للأبد في وشائج الساحر التلميذ وفي روحه، كما اختفت للأبد من سِفْر السحر الأعظم.

الليلة العاصفة كانت آخر ذكرى الساحر التلميذ المشتاق للحب عن قلعة المغربي التي تلاشت بلحظات، وكأنَّها لم تكن، وتباعدت الأرض حتى أصبح في ركنٍ آخر من الدنيا، ولكنَّه لم يبالِ؛ فقد كانت غنيمته تفوق غضب أستاذه، وتفوق كذلك اللعنة التي سلَّطها عليه، بالتَّحديد كان واثقًا من أنَّه سيستطيع أن يفكّ لعنة الساحر المغربي عنه. لقد قال المغربي إنَّه قد لعنه في قلبه الذي لن يعرف الحبّ يومًا، ولن يذوقه مع امرأة أبدًا، خشي الساحر التلميذ اللعنة للحظات، ثمّ هزَّ كتفَيْه غير مبالٍ، وقال بزهوٍ وسعادة: «ولكنِّي الآن ملك القلوب، آمرها فتطيع، أمنعها فتنتهي، أنا ملك القلوب».

وكان ملك القلوب... الكلّ شهد له بذلك، والكلّ دفع المال له صاغرًا من أجل ذلك، كان يملك كلّ القلوب إلاّ قلبه هو، فهو لم يملكه أبدًا، كان يشعر أنَّه غائرٌ في مكانٍ ما حدّ الانسحاق، وأنَّه ملعونٌ أسود كما عباءة الساحر المغربي، استثمر كلّ سحره، وتلا كلّ ما عرف وحفظ من ترنيمات وتعاويذ الحب من أجل قلبه لكن دون فائدة، بقي يقطع نهاراته في دفع التَّعويذات والمساحيق والمراهم والمشاريب السحريَّة لكلّ طالبٍ يدفع ثمنًا لها، كان قِبْلَة المحبِّين في هذه الدنيا، امتلأت مغارته بالجوهر والمال حتى أُتخمت، فكَّر في أن يتمنَّى بحرًا في مغارته ليتَّسع لكلّ هذا الجوهر، قدَّر أنَّه

سيكون بحرًا ساحرًا، ماؤه الدرّ، ولجّته الجوهر، وساحله الذهب، بتعويذةٍ واحدة، وضربةٍ من صولجانه السحري انشقَّت أرض المغارة عن بحرٍ يهدر في أعماقها، كان بحرًا ساحرًا، يتَّسع لكلّ جوهره، لكنَّه بقي حزينًا؛ لأنَّه يملك قلبًا لا يعرف معنى الحب، وإن كانت نفسه تهدر بكلّ معاني وجزئيات وتجلِّيات الحب.

من آخر الدنيا جاء إليه العاشقون والمحتارون، كلُّهم عادوا سعيدين راضين، بل إنَّ البعض عاد مرّةً واثنتَيْن وثلاثًا ليُبدِّل قدر قلبه، ويحوِّل عشقه، كان يستمع باهتمام إلى مطالبهم، ويهزّ رأسه متفهِّمًا لشكواهم، يلاعب بيديه المشعوعرتين لحيته الطويلة، ويحرِّك حاجبيه الكثيفين، ثم يعطيهم المطلوب بالأجر نفسه، وإن كان البعض يُصرّ عليه لأخذ ما حملوه له من جوهر أو حتى من قمح وزبيب وأجبان.

عندما كانت تخلو مغارته من الزائرين، وقليلاً ما كانت تخلو، كان يجلس على عرشه الماسي، ويُعزِّي نفسه قائلاً ردًّا على هواجسه وأحزانه: «ولكنَّني ملك القلوب».

فتقول نفسه بغير تردّد: «ولكنِّي أريد حبًّا... يا ملك القلوب أنتَ في أمسّ الحاجة إلى قلبٍ واحد، واحدٍ فقط... أهذا كثير؟!»

فـيكرِّر بيـأسٍ من جـديد: «ولكنِّي ملك القلوب»، وينخرط في بكاءٍ هادر يحرِّك أمواج بحره الغائر في مغارته، ويحرِّك كلمات العشق الذّائبة في دمه.

توقّع هذه المرة أن يهدر ساعاتٍ بدموعه، لكنّ السحابة السوداء التي لفَّت مغارته، وأسكنت هدير بحره، أثارت دهشته، بل وخوفه. لا أحد يملك مثل هذه السحابة الملعونة إلاّ رجل واحد، واحد فقط، ولا بدّ أن يكون ساحرًا، بل وكبير السحرة، نعم إنّه الساحر المغربي، سكنه خوفٌ كبير والسحابة تغشى عينَيْه، وتنحلّ في رجلٍ مارد مازال يحفظ قسماته على الرغم من غيابه عنه لآلاف السنين، لو أُعطي ألف خيارٍ ضوئي لما استطاع أن يُقدّر سبب زيارة حَبْر السّحر الأعظم، انحنى ملك القلوب لأستاذه بكلّ أدب، وقال له: «إذن يا أستاذي الجليل فقد التقينا بعد طول فراق».

حدَّق الساحر الأعظم في عَيْنَيْ ملك القلوب، طار خفّاشان من سويداء قعرهما، وقال بصوتٍ أجشّ ملأ المكان برودةً وعفونة: «لم آتِك محبًّا ولا مشتاقًا، ولكنّي جئتُ مضطرًّا، أنتَ تعرف أنَّني ملك السحر الأسود».

ـ قال ملك القلوب مقاطعًا بزهوٍ وغرورٍ وتفاخر: «إلاّ القلوب، فأنا ملكها».

ـ ردّ المغربي بانكسارٍ وإقرار: «إلاّ القلوب، فأنتَ ملكها، ولذلك جئتُكَ! ابنتي بهجة هي كلّ دنياي، وُلدت بقلبٍ شفّاف، فارغ من كلّ مشاعر، لا يعرف معنى سعادةٍ أو هناءة، كانت على ما يرام، إلى أن كبُرتْ، ومنذ ذلك الوقت، غدا جمالها شاحبًا، وبات المرض يبريها، أنا اعلم أنّ علّتها في قلبها، اصنع لها تعويذةً تشفيها، وترُدّ قلبها إليها».

ـ قال ملك القلوب: «وماذا عن قلبي أنا؟ ألن تفُكّ اللعنة التي تسكنه».

صمت الساحر الأكبر، وأُسقط في يديه، وأيقن أنَّه في صدد مقايضةٍ لا مفرّ منها، فقلب ابنته في الميزان مقابل قلب تلميذه الخائن، قال بغيظ: «عند أوّل دقّة قلبٍ لقلب ابنتي، ستسمع وجيب قلبكَ يهدر في صدركَ اللّعين». فرح ملك القلوب بهذه المقايضة التي رتّبها له القدر بعد انتظارٍ عمره آلاف السنين، وقال بتكبُّر: «يجب عليَّ أن أرى ابنتكَ، وأُعاين حالتها بنفسي كي أتمتم في أُذنيها بالكلمات السحريَّة المناسبة».

أومأ السّاحر الأكبر برأسه موافقًا، وفي لحظات كان وتلميذه في رأس جبل قاف حيث تقبع قلعته الباردة، التي يلفُّها السحر الأسود، كانت موحشةً مظلمة تمامًا كما تركها ملك

القلوب قبل آلاف السنوات، كانت مألوفةً له تمامًا، فقد كان يحفظ كلّ ركنٍ فيها، لكنَّ وجه بهجة كان شيئًا لم يألفه في حياته، كانت رقيقةً مثل سحابة صيف، عروقها تبرز من تحت أديمها الشاحب الذي أعياه المرض، وضع يده الدافئة على جدائل شعرها المتقصِّف، فأزهرت زهوره ورديَّة ربيعيَّة، فتحت عينَيْها الذّابلتين، وقالت بصعوبةٍ وإعياء: «أبي... هل عُدت»؟

ـ قال الساحر الأعظم بحنوٍ لم يألفه ملك القلوب فيه: «نعم لقد عدتُ يا بهجة... »

سأل ملك القلوب الساحر الأعظم بعزيفٍ حزين: «منذ متى هي مريضة؟»

ردّ الساحر الأعظم: «منذ ألف سنة!»

داعب ملك القلوب وجنتيها الذابلتين وقال: «يا إلهي!! لستُ متأكِّدًا من أنَّ كلماتي قادرةٌ على مساعدتها بعد كلّ هذا الوقت من المرض».

قال الساحر الأعظم بذلٍ وانكسار: «عليكَ أن تحاول».

بصعوبةٍ بالغة أشاحت بهجة بوجهها، لتلقي نظرةً على وجه الذي تسمع صوته، كان منتصبًا أمامها مثل شجرةٍ موسميَّةٍ غارقةٍ في الأغصان والمطر، كانت عيناه كنجمتين في كبد

السماء، وكانت عيناها بحيرتين جميلتين تفوقان جمال بحره ذي اللّجّة الجوهر، والساحل الذهبي. نظراتهما الحارقة أذابت جليد قلبه، وقهرت لعنة روحه، طفق قلبه يدقّ بقوّة ناقوسٍ نحاسيٍّ كبير، كاد قلبه ينخلع من صدره، لم يُصدِّق أنَّه يسمع وجيب قلبه بعد آلاف السنين من اللعنة، وجيب قلبه طغى على صمت المكان، انتفضت بهجة لهذا الصَّوت الذي تفتقد عزيفه منذ آلاف السنين، وقالت: «أبي... إنِّي أسمع وجيبًا، وجيبًا يخصّني أنا بالذّات».

قال الساحر الأكبر بتوتّرٍ وفزع: «لا بدَّ أنَّها تهذي، لعلّها تعاني سكرات الموت، هيّا يا ملك القلوب اشفها بكلماتك، كي أفكّ لعنتك».

ابتسم ملك القلوب من جهل الساحر الأكبر الذي لا يعرف أنّ لعنته فُكّتْ دون إرادة صانعها، اقترب من أذن الأميرة التي شنّفت أذنيها لكلّ كلمةٍ من ملك القلوب، وهمس بكلمتَيْن... فأشرق وجه بهجة، وفاض حيويّةً ونضرةً، وبدأ قلبها وجيبًا لا يعرف نهاية.

واختفت بهجة وقلعتها، وفي لمح البصر وجد نفسه من جديد في كهفه، اختفى كلّ شيء إلاّ عرشه وذكرى بهجة، لليالٍ

ردَّد المكان وجيب قلبه، كان ملكًا للقلوب، ولكن ليس لقلبه الذي أصبح ملكًا لبهجة، لزمنٍ طويل لا يعرف مقداره انشغل في مشاكل القلوب، وفي تمائمها السحريَّة، وكان ينتظر... ينتظر ماذا؟ لا يدري بالتَّحديد، ولكنَّه ينتظر.

وجاءت السحابة السّوداء، كان مُثارًا وكأنَّه ينتظرها، كان الساحر الأكبر في قمّة غضبه، رمقه بنظرةٍ شزرى، قال: «هيّا معي...»

حزم ملك القلوب كلّ ما يملك، وتهيَّأ سريعًا وكأنَّه ينتظر هذا الأمر.

في لمح البصر، كان في قلعةٍ قاف أمام بهجة المسجَّاة على سريرٍ بلّوريٍّ شفَّاف، كانت في حالةٍ من الضّمور والنُّحول والشحوب لا تختلف عمَّا هو عليه. قال الساحر الأكبر غاضبًا، وهو يشير إلى بهجة: «انظر ماذا فعلت بها كلمتاك اللعينتان، هيّا خذهما، وأعدها إلى سابق عهدها».

ـ قال ملك القلوب بتلعثم: «ولكن؟!»

ـ قال الساحر الأكبر مقاطعًا بغضبٍ: «بدون لكن، هيّا خذ كلمتَيْك، وإلاّ حوّلتُكَ إلى رمادٍ في مدفأة حقيرة...»

حار ملك القلوب في ما عليه أن يفعل، اقترب خطوتَيْن من سرير بهجة، سمع وجيب قلبها يتعالى ويقوى، مسح بظاهر يده دمعةً تنزت من عينها، وانحدرت على خدّها، فتحت عَيْنَيْها بصعوبةٍ، وقالت بفرحٍ وراحةٍ: «ها قد جئت!»

هزّ ملك القلوب رأسه مؤكِّداً ما ترى، قال الساحر الأكبر بغضب: «الآن خذ كلمتَيْكَ اللّعينَتَيْن».

اقترب ملك القلوب خطوةً أخرى وأخيرة من سرير بهجة، بات ملاصقًا لها تمامًا، اقترب من أذنها، وكاد يهمس بكلمتيه، ولكنّ الساحر الأكبر قاطعه قائلاً: «قل كلمتَيْكَ اللعينَتَيْن بصوتٍ مرتفع، ولا تهمس بهما همسًا».

أدرك ملك القلوب من حدَّة صوت الساحر أنَّه يعني كلّ كلمةٍ يقولها، وأنَّ ليس من الحكمة مخالفته أو إغضابه، قال بصوتٍ عوانٍ بين الهمس والتّصريح: «أنا أحبّكِ...»

اشتاط الساحر الأكبر قائلاً: «يا لعين! أهاتان هما كلمتاكَ اللّعينتان اللّتان أذابتا قلب وصحَّة ابنتي؟»

لم يأبه ملك القلوب لكلمات الساحر الغاضب، من جديد، قال بصوتٍ أكثر وضوحًا ودقّة: «أنا أحبّكِ».

ـ قالت بهجة التي أورق شعرها زهوراً، ودبَّت الحياة في أوصالها الميّتة: «وأنا أحبّكَ... يا ملك القلوب...»

ذاب قلب ملك القلوب سعادةً، وأَوْرَقَت القلوب عشقًا وسعادةً، وكُتب في سِفْر السحر الأعظم كلمات حبّ سحريَّة جديدة...

# رسالة إلى الإله

قليلٌ هم من يجرؤون على الغضب على الإله، لكنَّها غضبت عليه. نعم هي غاضبةٌ على زيوس الإله الأكبر الذي ينصرف إلى المتعة والشهوة والحبّ والسعادة، وينسى أنَّ له رعيّة شقيَّة، ينساها هي بالذات.. لقد تضرَّعت إليه طويلاً وإلى ابنته إلهة الجمال إفروديتي وإلى إله الحبّ كيوبيد، كي يهبوها حبًّا واحداً فقط، لكنّ الآلهة صمَّت آذانها دون اشتياقها وآلامها ورجاءاتها، لماذا هي مسجونة في هذا الجسد الأنثوي البغيض؟ تريد أن تتحرَّر، تتمنَّى لحظة حب واحدة، أهذا كثير على إله السماء؟ أكثيرٌ أن تتمنّى رجلاً يحبُّها دون نساء الأرض؟ هي تشتهي مخاصرةً تستمرّ حتى آخر العمر، لقد كفرت بإله السماء الأصمّ الذي لا يسمع شكواها.

أمسكت بدواة وقرطاس، وجلست إلى طاولتها الخشبيَّة، وكتبت بغضبٍ وتحدٍ يناسبان يأسها، وإن لم يناسبا طبعها واستكانتها: «رسالة إلى زيوس... أنا وحيدة... اللّعنة عليك كيف تتركني أعاني كلّ هذه المعاناة؟ أريد حبًّا واحدًا يملأ ذاتي، يهصر أشواقي وذاتي، يسكن ما بيني وبين جسدي، أريد حبًّا يقتلعني من أحزان جسدي، ووحدة ساعاتي، أريده حبًّا قويًّا جبّارًا لا يعرف الألم، أريده حبًّا يمسك بتلابيب روحي، ويخلق حشرجات دامية في نفسي.. اللّعنة عليك استجب لي ولو لمرّة واحدة».

انتظرت دقائق ليجفّ القرطاس، ثمَّ قدَّمته لإحدى صواعق زيوس التي اختلسته سريعًا، ووضعته بين يديه حيث يجلس على عرشه الماسي في أعلى نقطة من جبل الأولمب.

كان زيوس يتربَّع على عرشه بجسده الضَّخم ولحيته الفضّيَّة التي تمتدّ حتى ركبتيه، وبشعره الأجعد الذي ينغرس فيه تاج لازوردي لامع كبير.. على يمينه وقفت خادمته إلهة النصر، وعلى يساره جنميد حامل كأسه، وبين يديه إلهة الحظّ، وإلهة الشهرة فاما.

قرأ الرسالة التي وصلته مرّة وثلاث وعشرًا على مسامع نفسه، وبحضور حاشيته، خمَّن الكلّ أنَّه سيغضب من وقاحة

رعيَّته، وتوقَّعوا أن يصبّ جام صواعقه على رؤوس سكان الأرض عقابًا لهم، وامتعاضًا من وقاحة بعضهم، لكنَّه عاد من جديد، وقرأ الرسالة مرَّة أخرى، وشعر بحزنٍ شديد على تلك الآدميّة التي تتحرَّق للحب، ولم تذقه يومًا.

فكَّر طويلاً في شكل الحبيب والحب اللذّيْن تطلبهما، أعمل فكره وإبداعه في خلقهما،وأخيرًا خلق (هاديس) إله الموت.. كان صادقًا جدًّا، وقويًّا كما طلبت، كان قادرًا على اختراق الأجساد، والسكن في ما بينها وبين الروح. أرسله سريعًا إليها، كانت قانطةً تنتظر غضب زيوس، لكنَّ هاديس خيَّب توقُّعاتها، جاء مسرعًا وعطشان وراغبًا ومصمِّمًا على أخذها دون باقي نساء الأرض، امتدَّت يده السوداء القويَّة إلى تلابيب روحها، سكن ما بينها وبين جسدها، ملأ ذاتها العطشى، اقتلع وجودها من جذوره، أنقذها من سجنها الجسدي، شدَّ من وثاقه على تلابيب روحها، وانتزعها دون رحمة. كانت حشرجات الموت رائعةً لذيذة، خلا جسدها من كلّ شيء إلاّ من حبِّها العارم، شعرت بسعادة العشق، وقبل أن ترحل مع هاديس إلى مملكة العطش، أرسلت زفرة شكر للإله زيوس، وغابت في الموت.

حملت الصواعق زفرات الرضى العاشقة إلى زيوس الذي كان يرقب ما يجري باهتمام، غار في عرشه بارتياح، أمر بصرف جميع من حوله، حتى إلهة النصر المفضَّلة عنده أمر بصرفها. من جديد قرأ الرسالة الغاضبة التي كانت قد وصلته من أيام، قرأها بصمت في أول مرّة، في ما بعد جهر بكلّ كلمة فيها، في لحظةٍ نسي أنَّه الإله الأكبر، وتمنَّى لو أنَّه يحظى بلحظة عشق حميمة كالتي طلبتها الآدميَّة ساكنة الأرض.

في لحظاتٍ قدَّرها البشر بآلاف السنين من صمت الإله زيوس، واحتجابه دونهم، تذكَّر كلّ من عشق من نساء وإلاهات. كانت سلسلة طويلة من العشق والحب.. عشق هيرا، ويوربا، ولاتوفا، وإنتيوبي، وديون، ومايا، وتيمس، ويورنيوم، ومنيموزين، وأورينوما، وسيميلي الجميلة، والكمينة، وداناي، وليدا، والكثير الكثير من اللَّواتي نسي أسماءهن. ذاق آلاف النساء، عرف كلّ آهات وانكسارات العشق، ولكنَّه ما زال يتمنَّى العشق، ما زال يحلم بلحظة حب. تمنَّى لو كان له هو الآخر إله ليرسل إليه رسالة يتضرَّع فيها كي يذيقه العشق الحقيقي، ولو لمرّة واحدة في الحياة.

تنهَّد طويلاً، فأحرقت تنهُّداته وزفراته الكثير من بقاع الأرض، وضجّ البشر بالشكوى، عندها تذكَّر أنَّه إله، وأنَّ ليس

من حقِّه أن يتمنَّى ولو حتى في لحظة ضعف، طوى الرسالة التي يحملها، وجعلها في خزائن أوراقه. اتّكأ في مضجعه، وطلب حضور ساقيه. شرب كثيراً، وفي آخر الليل أصدر مرسوماً إلهيًّا يمنع وصول رسائل العشّاق إليه، لأنّ لا وقت عنده لوجع قلبه فضلاً عن قلوب البشر.. وغرق في سباتٍ طويل.

- تعديل على المرسوم: الإله زيوس لم يكن معنيًّا بالحب.
- تعديل على المرسوم الثاني: هذه أسطورة لم تحدث.
- تعديل أخير: زيوس لم ينم في الليلة التي سكر فيها، بل أمضى ليله باكيًا، وكتب رسالة إلى مجهول.

# الضفّة الأخرى

لا يذكر كيف كانت البداية، ومن يذكرها؟! بل من يستطيع أن يجزم بأنَّها كانت البداية؟ في هذا المكان يستشعر أطواق النهاية تحاصره، تعصر أمانيه، تمضغه بضعفه واستعطافاته، وتلفظه في النسيان. كان يشعر بشوقٍ وبنشوى، ومن يستطيع أن ينكرهما؟! الشّقاء هو الحقيقة الوحيدة في هذا المكان، كلّ الأشياء بطعم هذه الضفّة وبلونها، كلُّها تحمل الرتابة، وتشيع في نفسه القرف، والتَّوق إِلى السّعادة إِلى الضفّة الأخرى، إِلى الحلم.

مثل كلّ القصص، وعلى منوال كلّ الحكايا التي سمعها، والتي قرأها كانت قصَّته، بل كانت قصة كلّ أولئك الذّين يراهم على مدّ بصره على هذه الضفّة، بعضهم يكبرونه سنًّا، والبعض

الآخر أصغر منه.. نساء ورجال، أصدقاء ومتعادون، جادّون ومتعبون، كلُّهم ينبضون بروح الخلاص وأمل الوصول إلى الضفّة الأخرى.

لا يعرف كثيراً عن متاع الحياة، المكان الذي جاء منه نسيه تمامًا، بل لا يكاد يذكر أنَّه قد جاء من مكانٍ أصلاً، ولكن كلّ الذين هنا جاؤوا من البعيد، ولعلّه مثلهم فلا أحد يُولد هنا، لا أحد يُولد على ضفَّة الانتظار، ولكنّ الكثيرين يموتون عليها، لا يذكر له اسمًا ولا وطنًا ولا أمنية، لا يذكر إلاّ ما هو في صدده الآن.

لم يبرّ بوالدين، ولم يزرع أبناءً، ولم يحضن زوجة، ولم يذق جمال الانصهار في جسد آخر. في بعض الأحيان يحلم بجسدٍ غضّ ينصهر فيه حتى يعتصر آهاته، لكنَّه ما يبرح أن يضنّ بنفسه على نساء هذه الضفّة. في الضفّة الأخرى سيكون له وقفة طويلة.. مع حوّاء ذلك العالم المختفي.

قبل زمن لا يُعرف له مقدار، فلا ساعة ولا زمن ينتظمان الشوق والانتظار في هذا المكان، عرف امرأة سمراء على هذه الضفّة، الآن هو لا يذكر لها اسمًا، لعلّه لم يشغل نفسه بالسؤال عن اسمها أصلاً، ولكنَّه أحبَّها. وكان يجزم بأنَّه سيتزوجها في

الضفّة الأخرى. كانت تعرف الكثير عن الأسماء والتواريخ والعوالم وسِيَر الأبطال، ونهايات الثورات، كلُّها قصص حزينة، ولكنَّه أحبَّها. أحبَّ القصص أم المرأة؟ لعلّه أحبَّ كليهما. حلم وإيّاها طويلاً وطويلاً بالضفّة الأخرى، حيث السعادة والأمان والشباب والحب، اتفقا على أن ينجبا الكثير من الأبناء، وأن ينعما بكلّ لحظة في ذلك العالم، كانت تشتعل بذلك الحلم، وتتدفَّق به، لكنَّ ذلك النهر الكبير المتلاطم الذي يفصله عن الضفّة الأخرى ابتلعها بتوحُّشٍ وهي تحاول أن تجتازه سباحة، شأنها في ذلك شأن الكثير ممن حاولوا اجتيازه.

فكَّر بأن يحزن عليها، لكنَّه كان قد نسي كيف يحزن البشر، وعندما حدَّق في النهر الأسود الكبير الذي يبتلع البشر بلا رحمة، ولا يلفظهم بل يمتصّهم كما يمتصّ أحلامهم وأشواقهم، شعر بجبروته، فخشيه، حتى أنَّه نظم طاقة من الأشواق البريَّة التي تنغرز أشواكها بلا رحمة في زهورٍ ورديَّةٍ كبيرة، وقدَّمها احتراماً وإجلالاً إلى هذا النهر المتدفِّق في ظهر الزمن، وعاد إلى بيته القشّيّ وقد نسي تمامًا أنَّه كان قد قابل تلك السمراء الغريقة في يوم من الأيام، وعندما لمح صوت ضحكتها العذبة المتردِّد من عبق الماضي القريب، تساءل من تكون! ثم هزَّ كتفيه بلا مبالاة، وقصد مضجعه الخشن.

في مساء ذلك اليوم سمع أصوات نساء الضفّة الأخرى، كانت أجسادهنّ كأنَّها قطع اللّيلك، ضحكاتهنّ سعيدة، يشاطرن الرجال الذين معهم الضحك والسعادة والحب. أمضى ساعات وساعات ينقش على ورق البردي ما يتوقع أن يجده من ملذَّات في تلك الضفّة، اللغة هي الشيء الوحيد الذي يذكر أنَّه تعلَّمه.

أمضى زمنًا طويلاً لا يعرف له مقداراً أو اسمًا يدوِّن ملذّات تلك الضفّة، وصف سعادة لا تنتهي، وأشواقًا تُروى، وشبابًا يتجدَّد، جال في أراضٍ من الخير، وسماء دافئة، وعاشر نساءً خُلقن من الجمال، وخالط رجالاً دستورهم الوفاء.. باختصار كانت النساء من مرمر، والرجال من زبرجد، والأرض تفيض لبنًا وعسلاً. كتب وكتب وكتب عن ذلك العالم حتى ذابت أصابعه ووهن عظمه.

وكلَّما شعر بالتَّعب يمتدّ إليه كان يرسل بصره إلى تلك الضفّة، فيرى السعادة تنتظره.. الكلّ هناك، نساء ورجال ينتظرونه على الشاطئ.

قرأ الناس على الضفّة التي هو عليها ما كتب المرّة تلو الأخرى، وردَّدوه آلاف المرَّات حتى حفظتْ الضفّة والأشجار

وأحجار الأرض ما قالوا، أصبح ما كتب دستورهم، وأصبح هو رسولهم، وبات هو المخلّص المرتجى وصاحب الحظوة العظمى.

وعندما جاء الوقت المنتظر ألقى الجميع بأنفسهم في الماء، أعلنوا ثورة على النهر الذي لا يرحم، قرَّروا أن يكسروا جبروته، وأن يحطِّموا ظلمه، بصيحة رجل واحد، كانوا جميعًا أجسادًا غاضبةً تحاربه، وتخوض غماره.. والنهر لا يرحم، ثار على وقاحتهم، ابتلع أكثرهم ولفظ بعضهم، قليلون منْ نجوا من سواده الذي لا يعرف نهاية.

عندما وصل الرسول إلى الضفّة الأخرى كان ممتقعًا بالتَّعب والوهن حدّ التلاشي، وكانت فرحته لا تعرف حدًّا، كان نبيًّا قد صدق وعده، وقاد قومه إلى الخلاص الذي يرتجيه، قليل من أتباعه كان قد نجا. وقف بصعوبة، ثمّ أخذ يقفز فرحًا بوصوله إلى جنّته. أدار نظرات عجلى في المكان، تراءى له أنَّه في الضفّة التي جاء منها، ولكنّ البحر على يمين الضفّة، ما يعني أنَّه على الضفّة الأخرى، بدليل أنّ الضفّة الأولى كان النهر على يسارها.

الوجوه هنا بقسماتٍ مختلفة، ولكنَّها تحمل الأمنية نفسها، وهي قطع النهر والوصول إلى الضفّة الأخرى، تحلَّقت الوجوه بأجسادها المتعبة حوله، حاصرته بآلاف الأسئلة حول

الضفّة الأخرى. صعق لأنَّ أجساد النساء لم تكن من مرمر، ولا أجساد الرجال من زبرجد، ولم تكن الأرض تفيض لبنًا وعسلاً، وكانت الحيوانات مفترسة وكاسرة كما هي على الضفّة الأولى، والبشر يتابعون بحرقة أملهم المرجوّ في الضفّة الأخرى.

استقبل النهر بوجهه الكسيف، شعر بأنَّه يسخر منه، عرف أيَّ نبيٍّ مدَّعٍ كان هو، تحسَّس جسده الذي أحرقته السنون، شعر لحيته الأبيض لاح في وجهه، تراءى هدير النهر في أذنيه ضحكات سخرية مريرة، حدَّق في الوجوه المرسومة بقسمات الرجاء، تنهَّد على مضض وقال لهم: «الضفّة الأخرى مثل هذه تمامًا، ولكنَّكم قد تدفعون العمر ثمنًا لتعرفوا ذلك».

وجلس بانكسارٍ على تخوم ضفته الجديدة، وأخذ يراقب الضفّة الأولى من جديد، حيث النساء من مرمر والرجال من عسجد، والأرض تفيض لبنًا وعسلاً، فكَّر بأن يصبح نبيًّا مرّة أخرى، لكن ما تبقى من العمر كان لا يفي بذلك.

# اللوحة اليتيمة

**«إلى روح طارق العساف الذي**

**ابتعله الماء، ويتّم لوحته»**

ثُبِّتتْ على واجهة مخملية بارزة، الأضواء المُسلَّطة عليها أبرزت أحزانها ووحدتها، كانت تقبع في صدر المعرض، تواجه تمامًا عينيّ كلّ من يدلف إلى القاعة ذات البلاط الرخامي والجدران المخمَّرة بستائر مخملية خضراء، حصلت على الكثير من الصور الفوتوغرافيَّة من قبل مراسلي الصحف والمجلات، كانت تراقب جموع الحاضرين بحزن خاص يناسب خطوطها السوداء التي تحاصر بقعًا لونية صفراء يتيمة في حدادٍ أسود.

كلّ لوحة من اللوحات التي كانت مصلوبة مثلها على واجهة مخمليَّة نعمت بحشدٍ من الأصدقاء والمعارف، وبابتسامة عريضة على وجه راسمها إلا هي، فقد كانت وحيدة، تفتقد جموعًا تحمل ابتسامة فوز، وتفتقد بشكل خاص أنامل صغيرة رسمتها على عَجل.

كانت لوحة تشكيليةً تحمل اسم «غوّار»، رسمها طارق العساف ؛ ليكرِّس بها أحلام الطفولة، وليبرز فيها شخصية طفولته المفضلة المتجسِّدة في غوَّار، وليبث في ألوانها القاتمة خيالات حرمانه، وليزرع في بقعها الصفراء أمل رجولته التي تقف على أعتاب طفولته، لتدلف إلى جسده، فتكوّنه رجلاً أسمر بازغًا من شابٍ نحيلٍ صغيرٍ، في عينيه العسجديتين آلاف الطائرات الورقيَّة ذات الأذيال المزركشة التي تطير فوق سطح بيته، فيطاردها بعبثيَّة وشقاوة هما أجمل ما في طفولته البريئة، ثم يرسمها بألوان خرافيَّة لا يملك أن يشتري أيًّا منها؛ لأنَّه لا يريد أن يكبِّد أسرته المستورة الحال أيّ نفقات إضافية، ولو كانت نفقات زهيدة، ليرسم بها لوحة صغيرة تفتح طاقة على أحلامه، وعلى موهبته المتفتّحة كزهرة بريَّة.

لم يذهب إلى مدرسة الفنون، ولم يلتحق بأيّ نادٍ للرسم، وقليلة هي حصص الرسم التي عرفها في مدرسته

الحكوميَّة القديمة، ذات الأسوار المهترئة، لكن قلبه كان ينبوعًا للصور والألوان، كان يتّقن لغة الصور، ويفكّ رموز الألوان وطلاسمها. يكفيه أن يبتسم ابتسامته الخجولة السمراء، ثم ينتحي زاوية لدقائق أو لساعاتٍ، قد يقعد القرفصاء، ويسند اللوحة إلى حضنه، وقد يركن بها إلى أيّ حائط قريب، ثم يشرع بكسي عريها بألوانه، خطوط تنبع من قلبه، ألوان تمتزج بمقدار ذوقه، ووفق غريزته التي جُبلت بقدرة عجيبة على تذوق الألوان، واستجلاء جماليّاتها، واللعب بظلالها ودرجاتها، دقائق من العمل الهادئ المنقطع على ذاته، ثم تكون اللوحة، التي يطير فرحًا بها، تفخر طفولته الولود بلوحته المولود الجديد، يدور بها على أهل البيت، يعرض عليهم سحنتها الجميلة، يتبرَّع بشرح معانيها، ثم تلاقي مصيرها، قد تكون هدية لصديق، أو واجبًا مدرسيًّا لمعلّم الفنّ، أو مساعدة سخيّة لأحد أبناء الجيران الذين تقصّر موهبتهم دون رسم لوحة تقتضيها حاجتهم في المدرسة أو في الجامعة أو حتى في مسابقة.

موهبته كانت كنزه الذي لا تمانع نفسه الطاهرة في مشاركة أيّ أحدٍ به، بل يسرّه أن يطلع أيّ أحدٍ على وافر سحره، وجلي إبداعه، وإن كانت أمّه ترجو أن يكون نصيبه من الدراسة والاجتهاد والحياة والحظ بقدر نصيبه من ملكة الألوان، ومن

سلطان حضورها.. تتأمّل لوحاته، تقرِّبها من صدرها، تبتسم له ابتسامة عريضة تتربّع في قسماتها الهادئة، ثم تقول مقيِّمةً إيّاها: «رائعة». فيبتسم طارق الذي يرفض أن تضمه إلى صدرها، وأن تقبِّله؛ لأنَّه رجل، والرجال في عُرف طفولته لا تقبِّلهم أمهاتهم كالأطفال الصغار. يأخذ لوحته، ويطير بها إلى سرب الأصدقاء، وما أكثرهم كانوا في ركب المدرسة، وعرصات الحي وملعب كرة القدم الترابي الممتدّ على طول الشريط الغربي للحي الذي يسكنه!!

كان مصروفه قد نَفِدَ تمامًا إلا من قروش معدودة عندما عرف من أحد الأصدقاء القليلين الذين يشترون الصحيفة اليوميَّة أنّ مسابقة إبداعيَّة للشباب على مستوى الدولة، تفتح أبوابها للشباب الصغار مثله للتقدُّم لمسابقة الرسم بلوحات من رسمهم، كان باب قبول اللوحات يكاد يغلق بعد يوم، ولكن المبلغ المرصود للجائزة كان مبلغًا مستحيلاً وحلمًا خياليًّا لطفولته الجافة، قدِّر أنّه بهكذا مبلغ كبير يستطيع أن يجود بعشرات الهدايا على عائلته، ولا سيما على أمّه الحنون التي يجد حنان الدنيا في حضنها، بل ويستطيع أن يشتري عدّة رسم كاملة، ومن أجود الأنواع من محلات الرسم المتخصِّصة في العاصمة. لكن عليه قبل دراسة خطة إنفاق الجائزة المأمول فيها أن يرسم

اللوحة المناسبة، وأن يوصلها بنفسه إلى المركز الثقافي الملكي، حيث تسلّم اللوحات المشاركة وَفْق ما هو مكتوب في الإعلان.

ليلة واحدة كانت أمامه لرسم لوحته، كانت ذاكرته مخزناً يعجّ بآلاف الصور والخطوط، ولكنَّ المشكلة كانت في الألوان، وفي القماش الذي يحتاجه ليرسم عليه، ثم في الإطار الذي تشترط لجنة مسابقة الإبداع الشبابي أن يتوافر للوحة؛ ليعطيها الهيبة والشكل المطلوبين، لكنَّه لم يكن يملك من الألوان إلا الأسود والأصفر، ثم أنَّ لا وقت عنده لتجهيز الإطار المطلوب، فضلاً عن أنّ مصروفه الشهري كاد ينفد، ولا يستطيع أن يكبِّد عائلته المزيد من النفقات.. «إذن ما العمل؟! » حدَّث نفسه.

كانت عدّة رسمه تنحصر في الوقت الحاضر في لونين وقطعة قماش، وخلا ذلك لا شيء.. حتى أنَّه لم يكن يملك فرشاة رسم، ولم يكن هناك وقت لينتظر الصباح، ليمر على معلم الرسم في المدرسة، ليستعير منه فرشاة رسم لحين إنجاز لوحته، ثم إنَّه لن يذهب غداً إلى المدرسة، بل سيفرِّغ نفسه للذهاب إلى العاصمة، وليدفع بلوحته المفترضة إلى لجنة مسابقة الإبداع الشبابي! إذن الحلّ الوحيد هو أن يستعين بأنامله الصغيرة التي لوَّحت الشمس أديمها لرسم لوحته المبتغاة، وسيكون نجمه التلفزيوني المفضل غوّار هو بطل لوحته.

في الصباح كان طارق عساف يحتضن لوحته بحرص من يحمل أيقونة مقدَّسة، ويعدّ الدقائق في الباص الذي ما فتئ يتوقف ويسير، يحمِّل ركابًا وينزل آخرين ليسلِّم لوحته إلى لجنة المسابقة، مسَّد عليها بحنان بأنامله الصغيرة التي ما زالت ملطخة باللونين: الأسود والأصفر، مع أنَّه بذل جهداً كبيراً ليزيل أثرهما عن أنامله، لكن دون فائدة. كانت لوحته مغلَّفة بورق زينة الهدايا، وبدون إطار، مخالفة بذلك أحد الشروط الرئيسيَّة لقبول اللوحات الفنيَّة.

لكنّ أمل الفوز كان رائده، دلف إلى المركز الثقافي الذي يعجّ بمئات المتسابقين ممن هم في مثل سنه أو دونه أو أكبر مع ذويهم، ليقدِّموا أعمالهم الإبداعيَّة في موعدها الأخير للجنة المسابقة. كان الدور كبيراً، لكنَّه انتظره مبتهجاً فخوراً بلوحته، التي تفوق بجمالها ودقّتها كلّ اللوحات التي رآها في أيدي أصحابها. كان صف تقديم اللوحات قصيراً مقارنةً بصف الإبداعات الأدبيَّة كالقصة والخاطرة والخطبة والقصيدة، تحفّز الأمل في نفسه بعد أن قبل موظف المركز أن يستقبل لوحته التي تفتقر إلى أهم شروط المسابقة، ووعد بأنّ يقدم لها إطاراً إن فازت. «لعلّها تفوز» همس في نفسه التي تضج بالإثارة والتوقُّد، فهذه هي المرة الأولى التي يشارك فيها بمسابقة رفيعة

المستوى كهذه، شرع يتخيَّل الفرحة المنتظرة إن فاز بإحدى الجوائز الثلاث المخصَّصة للرسم، وإن كان يطمح للأولى منها، كم سيكون مهمًا عندها!! لا بد أنّه سيكون محلّ فخر أسرته، ولا بد أنّ صورته ستغزو المجلات والصحف، ليته قدَّم لهم صورة شخصيَّة أجمل من تلك التي قدمها لهم. «ولكنَّها تفي بالغرض»، حدَّث نفسه قائلاً من جديد. ولابدّ أنّ مدير مدرسته سيكرِّمه أمام طابور الصباح، ومن يعلم قد يضع له معلم الرسم الدرجة النهائيَّة في الرسم تقديرًا لفوزه. «لا بدّ أنِّي سأكون نجم المدرسة والحي إن فزت». أمّل نفسه قائلاً، وهو يصفِّق يدًا بيد متحمِّسًا، ويقطع الشارع المقابل للمركز الثقافي، ليستقلّ أوّل باص يعود به إلى بيته.

انتظر يوم إعلان النتائج المعلن عنه في إعلان الترشيح بفارغ الصبر، لكنّ لجنة المسابقة فاجأته بدعوته للمثول أمامها قبل زمن إعلان النتائج بأيام، خفّ إليهم، يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى. «أتراهم سيبلغونني برفض ترشيح لوحتي بسبب عدم وجود إطار؟» سأل نفسه. «هذا محتمل». ردّت نفسه بقنوط «ولكن لماذا لم يستبعدوها دون إبلاغي بذلك؟ فذلك من حقهم!» سأل نفسه من جديد.

« نحن لم نستدعك لنبلغك بقرارنا باستبعاد لوحتك » قال كبير لجنة تحكيم اللوحات عندما سأله طارق عن سبب دعوته.

ـ « إذن لماذا طلبتم مثولي أمامكم » سأل طارق بفضول أحيا الأمل في قلبه.

ـ « لكي نخبرك أنّ لوحتك قد فازت بالمركز الأوّل، وأنّ عليك أن تسارع بإحضار إطار لها قبل موعد إعلان النتائج بشكل رسمي ».

ـ « هل تعني أنِّي الفائز الأول في حقل الرسم؟ »

ـ « هذا تمامًا ما قلته ».

ـ « إذن أنا الفائز بالمركز الأول في حفل الرسم لهذا العام على مستوى المملكة ».

ـ « بالطبع يا بني » قال المحكّم الأشيب ذو الابتسامة الواسعة، وهو يرقب طارق يكاد يطير بجناحين ذهبيين انبتتهما سعادة من لدن عالمها الساحر.

غادر طارق المركز الثقافي، وسعادة الدنيا تحرسه، فكَّر في أن يوقف كلّ مارٍ في الشارع، ليخبره بأنَّه الفائز بالمركز الأول، حدَّث نفسه باحتضان سائق الباص، وتقبيل مساعده الغليظ،

والزعق بأعلى صوته «أنا الفائز». بصعوبة احتوى فرحته، وسرّها لحين عودته إلى البيت.

كان ينوي أن يقسِّم كلّ مدخراته المتواضعة بين رسوم رحلته المدرسيَّة إلى الحمة السوريَّة، وبين نفقاته الشخصيَّة في تلك الرحلة، لكن نظرًا للظرف السعيد الطارئ، فقد بات من المؤكَّد أنّ عليه أن يقسِّم مدخراته بين الرحلة ونفقاته، وبين ثمن ابتياع إطار جميل ومناسب للوحة غوّار، التي ستتبوأ المركز الأول في الحفل الذي سيقام الأسبوع القادم، وبهكذا تدبير سوف يحصل على الحسنيين: الرحلة والجائزة. إنَّها المرة الأولى التي ينعم فيها بأمرين سعيدين في أسبوع واحد. وحال انتهائه من الرحلة، سوف يهرول سريعًا بالإطار المطلوب إلى لجنة التحكيم.

هكذا كان مخطط طارق لجدولة نشاطات سعادته، لكن القدر كان قد جدول نشاطاته بطريقة مختلفة فيما يخص طارق، الذي قدَّمه لقمة سائغة للموت، فقد غرق طارق في رحلته المتمناة، غرق في الحمّة السوريَّة، كادت السعادة تحمله على جناحين من نور، لكنَّها لم تقوَ على إنقاذه من الغرق، الماء طمح إلى احتواء روحه الموهوبة، لم يبال بفرحته، ولم يرحم انتظاره لحفل توزيع الجائزة، وتجاوز بجبروت عن أحزان لوحته، فيتّمها،

واختطف راسمها، وأطعمه للموت، واحتواه بلجته دون أن يشعر بإثمه، ودون أن يؤنِّبه ضميره على قسوته، أو على جبروت وجوده. وعاد الأصدقاء إلى بيوتهم بملابس مبلَّلة، وبصدور معرّاة، ولم يعد طارق، الذي تنتظره لوحة يتيمة في بهو المعرض الذي أُعدّ لعرض كلّ اللوحات المشاركة في المسابقة، الفائزة وغير الفائزة، لتشاركه فرحة الانتصار.

كلّ الوجوه حضرت إلاّ وجه راسم لوحة غوَّار، فقد غاب للأبد، دون أن تعلم اللوحة المنتظرة أنَّها قد تيتمت منذ أيام، كادت تسأل أمّ طارق عن سبب غياب طارق، لكنَّها خرست وَفْقَ قاعدة الجمادات التي لا يسمح لها بالكلام في حضرة الإنسان الناطق الواحد، لكنَّها بحثت عنه في كلّ الوجوه، تفرَّست كلّ الشباب أصحاب البذلات الأنيقة، كانوا يتَّشحون بالأسود الأنيق ليبرز رجولتهم القادمة في هيئة رسميَّة تناسب المناسبة السعيدة التي هم في صددها، عطورهم العبقة ملأت الجو، وأثارت رتابته، وأبعدت عن ذهنها صورة طارق المتشح بأبيض الموت، والراكن باستسلام لرمس صغير احتواه منذ أيام.

لم يطل انتظار اللوحة لطارق، بل انتهى للأبد عندما أُعلن بحضور وزيرة الثقافة عن موت طارق غرقًا، اختنق الجو بعبرات

الحاضرين الذين شيعوا لوحة وصورة طارق بوافر الرثاء والحسرة، ووقفوا جميعًا احترامًا لذكراه، قارئين الفاتحة على روحه الطاهرة.

حضنت وزيرة الثقافة أم طارق التي داهمتها موجة بكاء حارة كتمتها بصعوبة مذ حضرت إلى الحفل، تمنَّى جميع الحضور لو أنّ في إمكانهم حضن أم طارق؛ ليطوِّقوا بأسى أحزانها، وليحملوا منها قبسًا من طارق. الشباب الموجودون في الحفل شعروا بخجل خاص من أجسادهم الغضّة التي تتمايل تيهًا بالبذلات الأنيقة أمام نظر أم طارق الموتورة بابنها.

جموع كبيرة من المستعبرين التفّت حول لوحة طارق، ترى فيها ما لم تره قبل دقائق، حُزْنُ الحشد هيَّج مشاعر اللوحة اليتيمة التي تهشّ بصمت لراسمها الراحل المتَّشح بالأبيض، وتحنّ بشكل خاص إلى أن يدسّها تحت إبطه، وأن يغادر بها المكان شأنها في ذلك شأن اللوحات الأخرى التي سُلّمت لأصحابها في نهاية الحفل، بعد أن أُعلن عن تسمية هذه الدورة الإبداعيَّة بدورة طارق عسّاف، لكن أمنيتها لم تتحقّق، فقليلةٌ هي أمنيات اليتامى المتحقِّقة. استسلمت اللوحة بانكسار ليدي أم طارق التي ضمتها بانكسارٍ إلى صدرها، وغادرت مبنى المركز الثقافي لا تلوي على شيء، وتقفل يدها بحزن على جائزة طارق الماليَّة التي حلم أن يشتري بها علبة ألوان من النوع الفاخر...

# رجل محظوظ جدًّا !

لأنّه رجلٌ محظوظ جدًّا! فقد قرَّر أن يشارك عصبة من المعارف في مشروعهم السرّي، فلعلّ العصبة تتوزَّع معه الحظّ الجيد الذي يلاحقه دائمًا، ويصبّ عليه جام مصائبه.. مع أنَّه يخشى على الأصدقاء وعلى المشروع كذلك من سوء طالعه الذي يلاحقه منذ وُلِد، فقد ماتت أمّه في لحظة انزلاقه رخواً دبقًا إلى الحياة، وبحضوره الميمون يتّم أحد عشر شقيقًا وشقيقة. زوجة أبيه المطلَّقة رفضت أن تتصدَّى لرعايته، فقد وُلد ضعيف البنية، دائم العلّة يحتاج إلى وافر رعاية، فورثته العمة العاقر الأرملة، التي ربته كما تُربي دجاجة أو غنمة صغيرة، القليل من الطعام، والأقل الأقل من العناية. الأخوة لم يذق منهم سوى ذكرى

مجاملات لطيفة، وأنس سرعان ما يتبخَّر من نفسه كلَّما زار بيت أحدهم، فيغادر دون أن يلفي في نفسه سوى امتنان الضيف لحسن الاستضافة. درس على حساب إحدى المنظمات الخيريَّة، وإن لم يستطع أن يستكمل دراسته العليا؛ لأنَّ حظَّه العاثر على الدوام جعل معدَّله ينقص بمقدار عُشرٍ حقيرعن المعدل المطلوب لإرساله في البعثة المتمناة. في أول رحلة في القطار فقد رجله اليمنى في حادث إهمال قُيّد على إنَّه قضاء وقدر، ولذا لم يستحقّ عليه أي تعويض، فأنَّى لتعويض أن يعيد قدمه التي لاكها القطار، ولفظها على سكّته كتلةً لحميةً فيها شوائب عظمية مهروسة بشدّة؟

من سوء الطالع أنَّه كان أكثر رجال الدنيا سوء طالع، فضلاً عن أنَّه كان نفسه، ولم يكن أيّ أحد إلاّ ذاته عديمة الحظ، المتعثِّرة دائمًا بقدر يصمّ أذنيه دون دعائه، ويأتي على غير ما يشتهي، ويذهب بوداع غير وامق، فقد اعتقد أنَّ قسمته التي انطوت على حصوله على نفسه دون الذوات الأخرى ليست إلا شكلاً من أشكال سوء الطالع، كم مرة فكر في أن يحتال لنفسه فيبدِّل نفسه بأيّ نفس أخرى عندها حظ ولو بمقدار حبة خردل! ولكن كلّ محاولته باءت بالفشل، وبقي حبيس نفسه، التي تستحقّ كلّ رثاء، على الأقلّ من نفسه، إذ إنّ أحداً لم يكن

معنيًّا بالرثاء لها كما يجب، أو كما يعتقد أنّ أزمته تستوجب من الرثاء.

الشيء الوحيد الذي حالفه الحظ به، هو هوايته الوحيدة والمتاحة، ضمن قدراته العقلية،وفي ضوء إعاقته التي نزلت منذ سنين، وخلّفته متَّكئًا على قدم خشبية خشنة، منحازاً في مشيته لصالح قدمه الخشبيَّة التي تقرع الأرض قرعًا، وتدمي المكان بحشرجةٍ مقيتة، تجعله ضنينًا بالحركة كي لا يثير اشمئزاز أو انزعاج الموجودين. الحاسوب كان هوايته العظمى، التي تدفعه إلى عوالم ما كان ليدركها، وتجعله ضمن نسق عالمي ضخم، وتثريه بالمعارف والأصدقاء والصلات.

له أصدقاء في كلّ أقطاب الدنيا، مضطلعٌ بكل ما يجري في أنحاء المعمورة، وعلى اطلاع دقيق على تكنيكات الحروب.. وعلى علم كذلك بالعلاقات السياسيَّة المريبة، يعرف أين صبَّت آخر الأسلحة المُتخلّص منها بعد الحرب الكونيَّة الأخيرة، وفي حافظته الإلكترونيَّة أسماء أشهر أعلام المال والسلاح والجنس وتجّار الموت في العالم، قادر على اختراق أنظمة الأمن في أخطر أماكن الدنيا، يحلو له أحيانًا أن يمتدّ لحظة خفيَّة في أروقة ومحافل سادة الدنيا، يفكّ شفرات أجهزة التجسُّس، ليصبح

ضيفًا سريًّا على أنظمة الحواسيب، يعرف أكثر مما يجب، بل وأكثر مما يشتهي، ينسحب كما دخل. أحدٌ لا يدري بوجوده، خلا بعض الخراب الذي يحدثه في الأنظمة بقصد الانتقام لنفسه التي ستمضي أيامًا متقزِّزة، ومضربةً عن يسير الطعام الذي تتوافر عليه، انزعاجًا وقرفًا مما سمع وعرف، ثم يتشافى، ليعدو من جديد على أسرار وأنظمة غيره.

لديه يدان سحريتان قادرتان على حلّ أعقد الشيفرات، وعلى فكّ أعتى الرموز السريَّة، قدَّم تقارير تفصيليَّة بقدراته الاستثنائيَّة، وبموهبته العجيبة لكثير من الجهات، لكن أيّ جهة لم تبدِ رغبةً في استقطابه، حتى تلك الجهات السريَّة المتناثرة في أصقاع المعمورة، التي تجرَّأ وأطلعها على قدراته على اختراق أنظمتها، أعياها الردّ، وتجاهلته، وعدّته نكرة لا تستحق أن يُحرِّك في سبيلها ساكنًا، وما ظنّته خطرًا يُحيق بها، فخلّت بينه وبين موهبته التي تذهب سدًى دون طائل.

الجهة الوحيدة التي بالت بعروضه، وطلبت مقابلته لم تكن معنيَّة بشكل أو بآخر بموهبته، بل أبرقت له بإيعاز من دائرة تشغيل الحالات الخاصة، باعتبار أنَّه معاق، يحتاج إلى أيّ عمل ضمن قدراته، وفي ليلة وضحاها وجد نفسه مدفونًا تحت

الأرض، في قاعة مبرَّدة أكثر مما يجب، لحفظ مخطوطات هو القيم على حفظها، وعلى تيسير مهمة الاطلاع عليها دون تصويرها أو إتلافها لكلّ طالب علم، وكثيراً ما يكون عالمًا انحنى ظهره، وشاب شعر رأسه الذي انحسر حتى كاد يجدب من أشجاره، يتناوب على استخدام نظارتين، أحدهما لمعالجة القصر، والأخرى لتبديد معضلة طول النظر، لكي يطالع باهتمام مسكون بالسريَّة مخطوطات ذات أسماء غربية، لمؤلفين ابتلعهم النسيان.

عرف أنَّ الكثير من المراجعين لمقرّ المخطوطات الوطنيَّة يبذلون جهوداً جبارة ومضنية ودؤوبة لسنوات طويلة، وبدعم جهاتٍ مختلفة، ونادراً بالاعتماد على تموين ذاتي مقنّن، لإعادة قراءة تلك المخطوطات، والتهميش عليها، ومن ثم تحقيقها، وبعثها من البِلى في كتب قيِّمة، لها وزنها وأهميتها في ميدان تخصُّصها.

تابع باهتمام تلك العلامات المكتوبة على المخطوطات، وأصبح قادراً على الحكم على أهمية وقيمة المخطوطة، كما كان قادراً على معرفة إن كانت المخطوطة بخط صاحبها، أم هي إملاء على أحد تلامذته، أم أنَّها نسخة أحد النساخ.. كان يعلم أنَّ

كـثـيـراً من الهـوامش الـتي تبـدو خطوطًا عـبـثـيَّـة تزحـم هوامش وجـوانب المخطوطة قـد تكون كتابًا آخـر مؤلفًـا عن هامش الكتـاب الأول. صنَّف المخطوطات بحـسب أهمـيّـتـهـا، ثـم أحـصـى نسخ المخطوطة الواحـدة، حـجل طويلاً حول المحـقّـقين، تابع مـلاحظاتهم باهتـمـام، وسـمح لنفـسـه بالتـدخُّل بـالأسـئلة التي تـفكّ رمـوز مـايكـتـبـون، وتفـسِّر مـا يفعلون، أسـئلتـه الذكـيَّـة، ومـلاحظاته الطريفة الجديرة بالإحكام، جـعلت له مدخلاً حسنًا، وتقبُّلاً طيِّبًا في أنـفس المحـقِّـقين الـذين أجـابوا طويـلاً وبإسـهـاب علـى كلّ أسئلته، واستمتعوا بمناقشاته واستدراكـاته وملاحظاته، التي ما وجدوا في أنفسهم حرجًا في تدوين بعضها، والتوقف كثيراً عند جُلّها.

وغدا راهب المخطوطات الذي يلجأ إليه المحقّقون والباحثون ويستـرشـدون بملاحظاته التي لا يضنّ بـها على أيّ زائر للمكان، إلا زائري ركن مخطوطات السحر والشعوذة، وإن كانوا قلّة، فقد كـانوا متكتـمين أكـثر مما يجب، يجيبون على الأسئلة باقتضابٍ وخبث. يتنحـون جانبًا، ويطالعون المخطوطات بحـرص من يبحث عن سرّ، يدوّنون مـلاحظاتهم على أوراق صغيـرة، يـدسُّونهـا في جيوبهم بحـرص، دون أن يعرف ماذا كتبوا فيها مهما اجتهد في معرفة ذلك، ثم يقفلون مغـادرين.. قد يعودون مرة أو مرتين بعد

ذلك، وفي الغالب لا يعودون، هيئاتهم لا تشبه هيئات أهل العلم، يخامره إحساسٌ مشوشٌ تجاههم، يقتضي منه الحرص والتيقّظ.

الفضول وحده من قاده إلى الاطّلاع على تلك المخطوطات القليلة المنزوية على رفّ سفلي في آخر القاعة بالقرب من آلة التبريد. طالعها طويلاً. معرفته بالمخطوطات لم تسوّغ له إلاّ معرفة القليل مما قرأ فيها، أما الباقي فقد بقي غامضًا لا يفكّ كنهه إلى أن تعرَّف إلى ذلك الشاب الطامح الذي شابه من سبقوه بزيارة المكان باللباس اللافت، وإن خالفهم بالتبسُّط والأريحيَّة في الكلام، اللذين ساقهما سريعًا، ودون توقُّع أو مقدّمات مطوَّلة إلى الاتفاق على البحث سويًّا ضمن فريقٍ من الأصدقاء عن الذهب في الصحراء الشمالية، حيث لا حياة أو بشر، فقط ذكرى سكة حديد قديمة، باتت مهجورة غير مستعملة منذ أن تبدَّلت خارطة المواصلات في العقدين الأخيرين.

كانت مهمّته تنحصر في استخلاص أهم مشاريع ومخططات آلات الكشف عن المعادن من شبكات التصنيع والتعدين ومواقع الهندسة الميكانيكيَّة والإلكترونيَّة على الإنترنت، لتصميم جهازٍ كشف عن المعادن، الذي سيقع عبء

تنفيذه على عاتق بعض الأصدقاء أصحاب الاختصاص. البحث كان طويلاً، والنتيجة كانت أقل مما يتوقع، لكنَّها مقبولة على اعتبار أنَّها خطوة أولى في تصميم الجهاز وتنفيذه ضمن ميزانيّتهم الماديَّة المحدودة.

تكاثف فريق العمل وتعاضد أعضاؤه إلى أن حصلوا على الجهاز المطلوب، الذي خيَّب آمالهم في رحلة عمله الأولى؛ فقد قصر مداه على متر أو مترين يستطيع أن يكشف خلالهما عن وجود المعادن، وما تجاوز ذلك فقد كان يقصّر دونه، لكن البحث بقي مستمرًّا.

تحوَّل إلى صحراوي من أوابد الصحراء التي ابتلعته والأصدقاء، واشتملتهم بهدوئها وسحرها، كان البحث شاقًّا، وتتبَّع خرائط الكنوز عسيرًا ومضنيًّا، يلزمه أنفسًا لا تعرف اليأس أو التعب، ولا تشتكي أفاعي الصحراء أو الشمس المحرقة أو الحرارة التي سلخت أبطيه، وما بين فخديه، وهيَّجت عقدة اللحم التي بُترت ساقه من تحتها، لكن بريق الذهب المُرتجى، وأمل الثراء المفاجئ كانا حافزين لا يعرفان فتوراً في أنفس الجماعة، ولاسيَّما في نفسه التي تخطّط أن تغتال بالذهب حظّها العاثر، وأن تنفق بعضًا منه على شراء حظٍّ جديد، يعوِّضه عن حرمان الماضي، ويسعف أيامه القادمة.

أهمل عمله طويلاً، وسمح لنفسه باختلاس بعض الصفحات الخطيرة من مخطوطاته الثمينة، واستطاع بعد جهد وعناء أن يفكّ طلاسم ومتغيِّرات كثيرة من الرموز والخرائط التي اصطلح عليها دافنو الذهب، وجعلوها مفاتيح سريَّة لمعرفة أماكن دفائنهم؛ لعلهم يعودون يومًا إلى استخراجها، الموت حال بين الكثير منهم وبينها، في حين بسم الحظّ للكثير من الذين وقعوا على تلك الدفائن، فتبدّل فقرهم غنًى، وتعسهم حظًّا، وافترّت الدنيا لهم عن ابتسامة ذات أسنان ذهبيَّة.

صورتا الجمل والجرة هما الصورتان الأحبّ لقلبه، وهما الصورتان اللتان بحث عنهما طويلاً مع الأصدقاء، فالجمل أو الجرة يرمزان للكنز، بفارق بسيط، فصورة الجمل أو الجرة النافرة تعني كنزًا مدفونًا على عمق قليل، أمّا صورة الجمل أو الجرة الغائرة فتعني كنزًا مدفونًا على عمق سحيق، قد يستلزم استخراجه شهوراً من الحفر، ولكنَّه مستعدٌ لبذل ذلك المجهود الخيالي! ولكن أين هما الصورتان المحفورتان؟ بحث عنهما طويلاً بجهد مضنٍ، أربك عاهته المزرية، وآلم ظهره دون جدوى.

حفظ الكثير من قصص الباحثين عن الذهب، التي انتهت في معظمها بالتمنِّي والفشل، والموت.. وفي النادر بالذهب والغنى. فقصص الذهب كانت ملطَّخة بدماء الأصدقاء الذين

يغدون وحوشًا مصابةً بالصرع مع أول بريق ذهبي، تمنَّى الذهب دون الموت، بحث طويلاً عن شخص واحد وجد ذهبًا، ليكون عزاءه في الصمود، لكنَّه لم يصدف ولو واحدًا، فحكايا الذهب والكنوز كثيرة، لكن من المستحيل أن تجد فمًا واحدًا يتشدَّق متفاخرًا سعيداً بلقيته الثمينة، فالصمت والسريَّة هما أفضل تدبير مع الذهب.. هكذا علَّمه الأصدقاء، وهكذا علّمته قصص الذهب.

تساءل طويلاً إن كان سيحظى يومًا بالذهب، وتمنَّى أن يحصّله حيًّا لاجئة هامدة، تتناوشها طيور الصحراء، وتتكالب عليها هوامها وضواريها، مع أنَّ حظّه العاثر كان يوسوس له كثيراً بالسوء، ويتمثَّل أمامه سببًا متوقّعًا لكلّ البحث الفاشل الذي يُمنى فريقه به المرة تلو الأخرى، ويلوِّح له باليأس الذي تنعى نفسه الاستسلام له، وإن كان يحدِّث نفسه طويلاً بأنّ الرحيل بعيداً مع حظه العاثر قد يفتح أبواب الكنز أمام الأصدقاء، ولكن طمعه وتمنِّيه للذهب ما كان ليحمله على النزول على حديث نفسه، ولا يصيب في نفسه إذعانًا لشكوكه ولوساوسه، فكل عنائه وسني شقائه سبب كافٍ لأن يصمد ولأن يستمر، وإن قصَّر توقعه دون أن يعرف أنَّ الانتظار على وشك الأفول، وأنّ باب الكنز قيد أنملة أو أنملتين.

في قلب الصحراء، في واحة جافة، تكدَّست صخورها بعبثيَّة طبيعيَّة خلاّبة، وفي قلب صخرة عظيم، حيث كانت تنفجر أعينٌ جفَّت منذ زمن، مخلِّفة نخلات سامقة، وأحجاراً ملساء براها الماء، وحفّها الهواء، كانت صورة الجرة مرسومة بعناية، بأطراف نافرة، أسعدته الصورة كما لم يسعد يومًا، رعدةٌ سرت في معاول الأصدقاء إثر مشاهدة الصورة، انهالوا بحفرٍ نشطٍ ممزوجٍ بنشوى غريبة، لا تعرف توقفًا، ولا تأنس لراحة. المعاول كانت الحي الوحيد والنشط في خمول المكان، في حين انحصرعمله في إعمال آلة كشف المعدن في المسح، التي ما فتئ رنينها المتعالي الذي لا يعرف انقطاعًا يؤكِّد أنَّ الكنز بات أقرب من تعبهم، ضربة من أحد المعاول اصطكت بشيء معدني، توقف المعول صاحب الضربة، واستنّت المعاول الأخرى سنته، حدَّق الكلّ سعيدين في وجوه بعضهم، كانوا جميعًا ينتظرون الضربة الأخيرة التي ستظهر الكنز، لكن أيًّا منهم لم يجرؤ على تلك الضربة، فقد كان الحلم قيد ضربة معول، لا بد أنَّ الرؤوس كلُّها كانت مشحونة بفكرة مضطربة واحدة، لسان حال وجوههم الواجمة ينقلها ببلاغة، قدَّر صاحب الحظّ العاثر أنَّ كلّ الألسن تسأل: «ماذا بعد؟» لكن أحداً لم يجب، وتركَّز الحفر والضرب في مكان الضربة المشهودة، وسريعًا ما برزت صناديق

الكنز، كانت صناديقَ سبعة صدئة، محكمة الإغلاق، متنحية بصمت، كعذراء لم تفضّ. تنهدات الراحة انبعثت من الصدور التي أنهكها البحث والحفر، فمن الواضح أنّ الكنز بكر لم تمسّه يد، وأنَّهم سيكونون مفترعيه.

صاح صوت: «مرحى، لقد أصبحنا أغنياء أخيراً»

تعاضدت الأيدي، وتصدَّت الصدور فرحة لتحتضن الآخرين مباركة مهنئة، مؤكِّدةً عهود الأمان المبرمة في الماضي، وإن كانت الأنفس تحمل حذراً ليس لطرده سبيل في ظلّ الثروة المستلقية على الأرض.

سأل صوت آخر بتحمسٍ ذكوري مشحون: «ولكن صناديق الكنز سبعة، ونحن ثمانية رجال، فكيف ستكون القسمة؟». أطرق الكلّ، في حين قال آخر بحذر من يحاول أن يحلّ مشكلة مفترضة، قد تلوح في الأذهان المتوقدة باستفزاز لذيذ: «لا مشكلة، ليتقاسم ثمانيتنا الصناديق السبعة»!

ردّ صوت متوقّد آخر: «ولكن قد تكون القسمة بهذا الشكل غير عادلة».

ـ «ولكن كيف؟»

ـ «انظر هناك جرة صغيرة أيضًا، فكيف سنقسم جرة واحدة وسبعة صناديق على ثمانية رجال»؟

ـ «صحيح، عندنا مشكلة حقيقيَّة».

ـ قال صوت متحدٍ بخبث: «لعلّ من المناسب أن نكون سبعة رجال لاغير...»

خيّم صوت رهيب على المكان، حسبة سريعة وخطيرة كانت تتَّقد في أذهان الصامتين، وشبح الموت يلوِّح بأجنحة سوداء تخيِّم على الواحة الجافة، أيقن الرجل ذو الحظ العاثر أن حظّه العاثر قد حضر الآن مدجَّجًا بقوته اللعينة، وخال أنَّه جاء هذه المرة واضعًا يده بيد ملك الموت، لا بدّ أنَّه الحلقة الأضعف، والحصان الأهزل في سباق الذهب، إحدى الأعين التي امتدَّت بتلقائية إلى قدمه الخشبيَّة أكَّدت توقعاته، فلا بدّ أنَّ التخلّص من رجل بقدم واحدة سيكون أسهل الحلول، وأسلم التسويات في هذا الخيار الجهنمي، ولكنَّه ما كان يريد الموت، وما كان في طاقته كذلك أن يتصدَّى برِجل واحدة لسبعة رجال أزاغ بريق الذهب قلوبهم وأسماعهم وضمائرهم،كان عليه أن يجد حلاً لنفسه في أجزاء من الدقيقة. خرق صمته الهدنة المريعة التي يقطعها الكلّ في زمن رتيب جاثٍ على تحفّز النفوس، وعلى

فوضى الأفكار، ثم قال بحزم: «أنا لا أريد صندوقًا، تكفيني تلك الجرة الصغيرة، وتقاسموا أنتم الصناديق». «تسوية عادلة» صاح صوت. «أظن أنّه اقتراح مقبول» صاح صوت آخر.

اقترب الرجل ذو الجسد العظيم والعضلات المفتولة الذي تتنزّى شهوة الذهب من بين لعابه من الجرة الصغيرة، ودفعها في الهواء باتجاه صاحب الحظّ العاثر، الذي بذل جهدًا كبيرًا ليكيّف جسده، ولينحني نصف انحناءة جانبيَّة، ليلتقط الجرّة الصغيرة، ضمّها إلى صدره، كانت غنيمة مقبولة إلى جانب بقائه على قيد الحياة. خطا خطوة مبتعدة، وقال: «بهذه الجرة أكون قد أخذت كلّ حصتي...». لم يسمع جوابًا، لكنَّ صمت الجميع أراحه، انطلق في الصحراء، يحمل غنيمته الصغيرة، ويستعدي كلّ طاقته، لتسعفه أكثر ما يمكن في الابتعاد، كان صوت نقاش الأصدقاء مازال يشحن صمت المكان، الصراخ كان في تعالٍ، مع أنَّه كان في ابتعاد. من الواضح أنَّ خلافًا جديدًا في القسمة قد ظهر، واشتدّ. أصوات الطلقات النارية أكَّدت أنَّ تسوية دمويَّة تحدث في الواحة، ما كان ليبالي بها، حتى بعد أن توقفت العيارات، وسوِّيت الخلافات لصالح واحد لاغير، رآه من بعيد يركب سيّارته الصحراويَّة، ويبتعد بعيدًا بغنيمته العظيمة،

وسحابة الرمال المتطاير إثر عربته تشيُّعه بجلبة مزعجة، لم يفكِّر أبداً في أن ينثني عن سيره.

ثم وصل إلى جرف صخري يعلوه شقّ صلدٌ عظيم، اندسّ بين صخور الشقّ، أخذ راحة كاد الموت يزهق روح صاحبها، الذي أعيته القدم الخشبيَّة سقوطًا وانزلاقًا وعرجًا، جفاف الموت لفح حلقه، كان مستعدًّا لشراء شربة ماء بكنزه العزيز الذي يضمه بحنوّ إلى صدره المكسوّ بالقليل من اللحم المزبد بالشعر الأسود.

هدوء المكان وأنفاسه التي كانت تجنح للانتظام أكَّدا له أنَّه قد أصبح في عهدة السلامة، مسَّد على جرته، وتساءل أيّ الجوهر يسكنها؟ كان بين شهوتْي الاكتشاف أو التمنِّي، اختار الشهوة الأولى، فقد شبع قسراً طوال حياته من الشهوة الأولى. استعان بحجر صغير مدبَّب لتهميش فوهة الجرَّة الموصدة، غبار رمادي غريب اندفع من الفوهة، للحظات انعدمت الرؤية، ثم استوى الغبار امرأة جميلة، بغلائل شفافة، وقرون ذهبيَّة صغيرة، وابتسامة جهنميَّة، حضنته كما غول، كادت تهصره، ثم أرسلته بشهوة، وقالت له: «ها قد التقينا يا سلطان الزمان».

سأل بخوف يكاد يقتله: «من أنت؟»

ردَّت بتحمس: «أنا زيزفونة».

سأل بتوتر وقلق: «من زيزفونة؟»

ـ «أنا جنية المتوفى صاحب الكنز الذي حرَّرتني منه».

ـ سأل بخوف: «أكان هذا الكنز لمتوفىً؟»

ـ «بالطبع، هذا الكنز لرجل متوفىً، ولو حفرتم بمقدار متر إلى شمال الكنز لكنتم حظيتم بهيكله العظمي».

ـ «الحمد للّه إذ حرمنا مقابلة ذلك الهيكل».

ـ «هل عندك مستودع السرّ؟»

ـ ردّ بوجل وريبة: «بالتأكيد».

دنت منه، فتضوَّع أريجها، وسكن خيشومه، قالت بتؤدة: «حيث وجدتم الكنز هناك بحر من الكنوز، فهذا المكان مقبرة ملوكية قديمة، تحت رمال تلك الواحة بحر من الكنوز».

ـ وماذا عنك؟»

ـ ماذا بشأني؟»

ـ «أقصد ألن تعودي من حيث أتيت؟»

ـ «مستحيل، فأنا في انتظارك منذ ألف عام...»

ـ « تنتظريني! لماذا؟! »

ـ أنتظرك لأتلبَّس جسدك... وأصبح وإياك واحداً »

ـ « ولكنِّي لا أريد ذلك! »

ـ « ومن سيبالي برغبتك ؟! أنا أحبّك ».

ـ « منذ متى ياكاذبة؟ للتو قابلتيني! »

ـ « سُرقت من أرض الجنّ، وسجنت في تعويذة سحريَّة لأسكن جسد ملك البربر »؟

ـ إذن اسكني جسده ».

ـ « ولكن جسده بلي وتحلَّل، وأنا مِلْكٌ لمن يجدني، وأنت من وجدتني، بل أنت من اختارني، ألا تذكر أنّك اخترتني، وتخلَّيت في سبيل ذلك عن صناديق الكنز، لذلك سأسكن جسدك إلى الأبد... »

قال بريبة ويأس من أُسقط في يديه: « ولكن هذا سيفسد حياتي ».

ابتسمت، وغمزته قائلة: « لاتقلق، فمن يدري قد تحبني وقد نتزوج، وقد ننجب أبناء خليطًا من جسد الإنس وروح الجن ».

ـ « ابتعدي عنِّي أيَّتها الملعونة » .

ـ « ولكنَّني أحبّك » .

حظَّه العاثر كان هاجسه الوحيد وهي تخترق جسده، وتنازع روحه المكان، وتضيِّق على أحشائه، كانت كرمح مسموم يندسّ بين اللحم والعظم، يؤلم، ثم يقتل.. كره الكنز، وحقد على حظَّه العاثر الذي ملَّكه لجنّيَّة عاتية سرعان ما تحوَّلت إلى حب عظيم اجتاح نفسه البائسة، و اكتنف جنباتها، وحاق بآلامه، وأشعل جذوة سعادة لاتخبو في وجدانه، وجعله يؤمن بحقّ أنَّه رجلٌ محظوظ؛ إذ نجا من الموت الذي ابتلع أصدقاءه، فضلاً عن نجاته من حبل المشنقّة الذي التفّ حول رقبة الناجي الوحيد من رفاقه، ثم وهبه جنية ساحرة، سكنت الزمن والجوهر، وتصدَّت لحبه، وملأت نفسه الحزينة سعادة، وجعلته بحقّ رجل محظوظ جداً!

# الصورة

توقّع حدوث أيِّ طارئٍ معيق، وفي سبيل ذلك أخذ كلّ الاحتياطات في رحلته الطويلة في الأرياف الشماليَّة، إلاّ أن يهاجمه ألم الأسنان من جديد، الذي اعتاد أن يداهمه في السنين الأخيرة دون سابق، والذي اتَّخذ في سبيل ردّ عدوانه الآثم، وفي سبيل وضع حدٍّ له، آليّةً طويلةً من الحلول، ابتدأها بالعلاجات الطويلة التي أنفق فيها جُلّ ما ادَّخره بصعوبةٍ دون أبحاثه على حشرات الفاكهة، ثم أنهاها بخلع بعض الأسنان والأضراس التي أعيته ألمًا وعلاجًا بعد أن آمن أنَّ الخلع آخر العلاج، وبهذا الترتيب الأخير أعدم الآلام التي حاصرته طويلاً، ومنعته من متابعة أبحاثه زمنًا طويلاً، وإن كان يسوؤه أن يرى

وجهه الشاب الوسيم يفترّ عن ابتسامةٍ شبه شوهاء تفتقد الكثير من الأسنان والأضراس، لكنَّ عزاء توقّف الألم، وتأجيل أمر زراعة أسنانٍ جديدة إلى حين تحسُّن أحواله الماديَّة، عقب انتهائه من أبحاثه التي يعوّل الكثير على نتائجها خفَّف من وطأة انزعاجه، وكان في اعتماده ابتسامةً ترتسم دون أن تكشف عن الأسنان تدبيراً مقبولاً لمشكلة أسنانه وأضراسه المفقودة.

سبق أن داهمته بعض النَّوبات القصيرة من ألم الأسنان التي لم تتجاوز دقائق معدودة، ولذلك لم يعرها أيّ اهتمام، ولكنّ النَّوبة هذه المرَّة جاءت طويلة ومتمطِّية بوحشيَّة، لا تفارقه ولو للحظةٍ، جاءت تمامًا مع أوَّل بارقة إشعاع لشمس الصباح، جاءت دفعةً واحدةً قويَّة، وكأنَّها موجةٌ عاتيةٌ محبوسةٌ خلف سدٍّ تهاوى، شعر أنَّ لطمةً ما صكَّت وجهه المرهق إثر ليالٍ طويلةٍ من الدراسة والبحث، ثم حلَّ الألم، مارداً عظيمًا، لا يرحم ولا يرحل. كان كلّ فكره المضطرب موزَّعًا بين فكرتين لا ثالث لهما، الأولى وكانت الأضعف في اجتذابه، وهي أنَّى للألم أن يعود ليغزو أضراسه وأسنانه السليمة بعد رحلة علاجٍ طويلة ومريرة، أكَّد طبيبه بعدها أنَّ الألم قد رحل للأبد؟! والثانية وكانت الأقوى في تملُّكه؛ ذلك بفعل الألم الذي أضنى جسده في أوَّل لحظات هبوطه وهي البحث عن السبيل الأمثل

والأقرب والأسرع لوضع حدٍّ لهذا الألم، ولو كان ذلك لفترةٍ محدودةٍ، حتى يتسنَّى له أن يضع حدًّا جديداً للألم الذي يعتصر فكَّيه.

جلس في سريره بعد جولةٍ سريعةٍ ومضطربةٍ في الكوخ الصغير الذي استأجره بمبلغٍ زهيد، كانت محصَّلتها ازدياد الألم حتى شتَّى عظام جمجمته، وضعف حيلته، فلا أقراص مهدِّئة معه أو في الكوخ، ولا سيارة قريبة في المكان يمكنها أن تنقله إلى العاصمة ليتلقَّى العلاج، ولا هاتف في كوخه أو في الجوار يمكِّنه من الاتصال لطلب المساعدة أو حتى المشورة الطبيَّة.

فكَّر في أن يطلب المساعدة من صاحب الكوخ الذي يسكنه، لكنَّه يقيم على بعد ثلاثة كيلومتراتٍ على أقلِّ تقدير، فلا أحد يرغب في السُّكنى فرداً وحيداً وسط بساتين الفواكه، إلاَّ من كان هارباً من شيءٍ ما، أو جاء لأمرٍ ما في نفسه، كأن يكون مثلاً معنيًّا بدراسة حشرات الفاكهة عن قرب ومتابعة سلوكها عن كثب، لا سيَّما أنَّ المعهد الذي يتبنَّى دراسته قد وهبه منحةً ليست بالسَّخيَّة، ولكنَّها تتوافق مع إمكاناته الماديَّة المتواضعة، ومع حاجاته الأساسيَّة لا غير.

بحسبةٍ سريعةٍ يائسةٍ قدَّر أنّ رحلة العودة إلى العاصمة، وتكاليف العلاج ستستنزف دون شكّ مال المنحة، بل وستتجاوزها لتبتلع جُلَّ مدخّراته المتواضعة. شعر بقنوطٍ وتبرمٍ من حظّه العاثر إلى درجةٍ زادت من وقع الألم على جسده، ومن جديد عاد إلى حمأة الألم والحيرة.

استقرَّ رأيه بعد مشورةٍ من حارس البستان المجاور لكوخه على أن يذهب إلى طبيب الأسنان الوحيد الموجود في الرِّيف الشَّمالي كلّه، كان وفق ملاحظات الحارس يسكن في الجوار، الذي مقداره وللأسف أكثر من أربعة كيلومترات. عليه أن يقطعها سيراً على الأقدام أو على دراجته الهوائيَّة على أحسن تعديل. وبما أنّ يديه مشغولتان على التناوب بحمل كأس الماء ذي الملح المذاب، الذي يستخدمه للمضمضة المتكرِّرة لتخدير الأسنان، وللتَّخفيف من الألم، بناءً على نصيحة الحارس، فقد كان من المتعذِّر عليه أن يقود دراجته، وعليه بالضرورة بناءً على ذلك أن يقطع البساتين سيراً، تحت وطأة ألمه، وبيدين مشغولتين بحمل كأسٍ يتمضمض من مائه كلَّ بضع دقائق.

ابتسامة الطَّبيب الأشيب المكتنز الأعضاء، البشوش المحيّا، خفّفت من وطأة ألمه، ومن مشقّة رحلته الطويلة، وكانت أوّل ما

قابل بعد انتهاء رحلته المعناة. كانت يده اليمنى بشكلٍ خاصٍّ متشنِّجةً من حملها للكأس لمسافاتٍ طويلة. وضع الكأس الزجاجي الذي فرغ للتوّ من مائه على أول طاولةٍ وجدها، واستلقى بتمطٍّ منهكٍ على كرسيِّ العلاج، حتى دون أن يومئ له الطبيب بذلك، فألمه أنساه كلّ استراتيجيّات الذوق واللطف، بل حتى أنَّه قد شغله عن متابعة حشرات الفاكهة التي مرَّ بها في أثناء رحلته عبر الحقول والبساتين.

وبدأت رحلة العلاج بالإجراء الأول الذي يفضِّله وينتظره منذ ساعات، بالمخدّر والتسكين. حقنه الطبيب الذي أخذ ملاحظاتٍ سريعةً عن تاريخه المرضيِّ من خلال جملٍ قصيرةٍ ومتلاحقةٍ قالها ملخِّصًا تاريخه المضني مع ألم الأسنان، وأنهاها بذكر اسم طبيبه، وأسماء الأدوية والمسكّنات التي تواتر عليها أثناء علاجه السابق وقبل السابق. وبعد معاينةٍ متفحِّصةٍ، راقب فيها عينَيْ الطبيب الأشيب، المنزلقتين في تجويف فمه، بحثًا عن موطن الألم وسببه، استلّ الطبيب حقنةً مخدِّرٍ واثنتين وثلاث، وحقن لثّته بهنّ، وقليلاً قليلاً، بدأ الألم بالفتور، وأصبح من الممكن أن يتملّى في وجه طبيبه شبه المسن، الذي أسند كفَّي يديه على خاصرتيه، اللَّتين تعلوان قدمين منفرجتين بثباتٍ على

الأرض، وهو ينتظر أن يسري المسكّن في سائر لثَّته كي يبدأ طقوس العلاج والحفر والتَّرميم، كما أصبح من الممكن أن يدير نظرةً متفحِّصةً في العيادة الصغيرة، التي تحتوي على القليل من الأدوات النّظيفة، والأثاث الريفي الأنيق الذي لا يخفي ذوق صاحبه.

وجّه الطبيب البشوش بضعة أسئلةٍ له، أجاب عنها باقتضابٍ وفتورٍ وتراخٍ، بعد أن بدأ المخدِّر رحلته بالتسكين، شعر أنَّ أطرافه تتراخى، وأنَّ فمه قد تضخَّم بمقدار عشرات المرّات، وشفته السُّفلى تراخت حدّ التدلّي، كاد يرى شفته العليا المتضخِّمة أسفل عينَيْه، وبات يُحسُّ كلّ أديم وجهه وشفتيه يمتدُّ لمسافة مترٍ أمامه على الأقل، وبدأ بريقٌ ما يلوح في عينَيْه، فيرى ومضاتٍ غريبةً تحول دون رؤية وجه طبيبه المحاصر بقناعٍ طبّيٍّ أبيض لا يسمح إلاّ برؤية عينَيْن شهلاوتين. وفي سحيق الوميض، يرى عينَيْها اللّتين تنزرعان في وجهها الملائكيّ، المقيَّد في داخل إطار صورةٍ فضيٍّ، مركونٍ باهتمامٍ على مكتب الطبيبَ، سأل الطّبيب في سكرة المخدّر، «من تكون؟» أجاب الطّبيبُ بنبرةٍ آليّةٍ غير مبالية إلاّ بعمله وبجهازه الدقيق الذي يُعمله في أحد الأضراس: «إنّها زوجتي...»

إذن... هي زوجته، ولكنَّ عينَيْها هما العينان اللتان حلم بهما طوال عمره، لهما الرموش نفسها، والصمت نفسه، والنظرة النعسى نفسها، بل ونفس البريق الغارق في دموعٍ لا تفارق عميق نظراتها.. يا لها من نظراتٍ!! تتسلَّل إلى نفسه بين الألم وسكرة المخدِّر، فتلهب أضلاعه، وترسل بريقًا يغرقه في وهج عينَيْها، يرى عمره الفائت مكسوراً على بوَّابة عينَيْها اللّتين تحرّرتا من الإطار الفضيّ، وحامتا في سماء الغرفة. كان يترنَّح مخموراً بشذاها الأنثويِّ الذي خلقه في ذاته منذ أن تمنَّاها، رأى الماضي والحاضر والمستقبل وكلّ أبحاثه غباراً منثوراً تحت وطأة قدمَيْها اللّتين اشتهى تقبيل أديمهما الورديِّ الرقيق.

آهٍ كم انتظر وتمنَّى هاتين العينَيْن دون كلِّ عيون نساء الدنيا، رسمهما بتمعّن وقدسيَّة من يرسم وجه ملاكٍ، ثمّ حفرهما بتأنٍ في ذاكرته، وأطعم نفسه والتَّمني للنسيان وللعمل الدؤوب الذي لا يعرف توقُّفًا بعد أن يئس من أن يجدهما إثر مطالعةٍ طويلةٍ في كلِّ وجوه النساء اللّواتي قابلهن في أصقاع عمره، وها قد أطلّتا من المستحيل، من بين الألم والنشوى أطلّتا، وغرق في نومٍ طويلٍ.

عينا الطّبيب كانتا في انتظار استيقاظه، تمتم الطبيب بكلماتٍ لم يفهمها، ولكنّه قدَّر أنَّها كلمات تشجيع لتخطِّي الألم، ثم سمعه يقول بنبرةٍ أبويّةٍ عطوفةٍ: «يبدو أنّ عيار المخدِّر قد كان قويًّا، لذا فقد رحتَ في نومٍ طويل».

هزَّ الرَّجل رأسه متفهّمًا لما حدث له، وبنظرةٍ عجلى بحث عن عينَيْها، فوجدهما مستقرَّتين في دعةٍ في وجهٍ ملائكيٍّ ما زال مسجونًا في إطارٍ فضِّيٍّ، أبرقت العينان له ببريقٍ سماويٍّ خاطف، صعق جسده من جديد، وعاد إلى نومٍ لذيذٍ لم يعد فيه أيّ أثر للألم.

تردَّد أكثر من مرّةٍ على عيادة الطبيب بحجَّة الاطمئنان على وضع أسنانه التي غادرها الألم تمامًا بعد أن فقد سنًّا أخرى في سبيل ذلك، جلس طويلاً إلى الطبيب اللطيف الذي دعاه مرةً تلو الأخرى لمشاركته شاي الظهيرة، ووقع في نفسيهما استلطافٌ متبادل، وإن كان في جُلِّ أمره مشدودًا بعنفٍ إلى صورة امرأةٍ لا يعرف منها إلاّ عينَيْها، اللتين كانت تقولان له بعشق: «انظر، أنا هنا، أنا حقيقة، أقبل لأنِّي موجودة».

في كلِّ مرةٍ وعد نفسه الزائغة تحت وطأة الشّكِّ والخوف أن لا يعود إلى العيادة، فكيف يمكن أن يكون أسير نظراتٍ

متجمِّدةً في إطار؟ أسير نظراتٍ رسمها في الخيال، فسعد عندما وجدها حقيقةً في مكانٍ ما في هذه الدنيا، ولكنَّه وجدهما أخيراً... كانتا في انتظاره منذ دهر، أو كان في انتظارهما منذ دهر، لا يهمّ من كان منتظراً بالتّحديد، ولكن المهم أنَّها موجودة في القريب منه، قريبة إلى حدٍّ أنَّه يمكنه أن يراها بمجرّد أن يقرِّر أن يعرِّج على بيت الطبيب لأيِّ حجَّةٍ يخترعها.

عندها يمكنه أن يقترب منها، وأن يراقب أديمها الفضيّ الذي يظهر أعلاه بازغًا من ثوبٍ لا يستر كتفَيْها العاجيّتَيْن، تمامًا كما تبدو في صورتها، ليقول لها: «ها قد جئت...» ثم يغرق في وميض عينَيْها إلى الأبد... هو الآن يعشق امرأةً في صورة، ولكنَّه لن يبقى أسير حبٍّ ضبابيٍّ، لن يسمح بأن تكون عينا من يعشق مصلوبتين في صورةٍ إلى الأبد، سيكون صاحب الكلمة الأولى، سيأخذ الخطوة التَّاريخيَّة، سيقول لعينَيْها: «كوني»، فتكونان، سيتحدَّى الصمت البارد، ويشعل فيهما نيران عشقه.

انتظر أن يدعوه الطبيب إلى بيته، ولكنَّ ذلك لم يكن، مع أنَّه قد دعاه إلى كوخه المُتواضع أكثر من مرّةٍ على غداءٍ أو على عشاءٍ. حارس البستان همس له قائلاً بصوته المرتجف ذي

الزعيق المزعج: «إنَّه رجلٌ غيور، البعض يقول إنَّه يحبس زوجته الجميلة في بيته، ويمنعها من الخروج، ويمنع أيَّ أحدٍ من زيارتها».

ـ «أهي من بنات المنطقة؟»

ـ «لا... الطّبيب وهي كلاهما غريب، جاءا منذ زمنٍ بعيدٍ إلى الرِّيف، وأقاما دون أن نعرف عن تاريخهما شيئًا، الزوجة يقال إنّها صغيرةٌ وشابة وجميلة مع أنِّي لم أرها أبدًا، والزَّوج طبيب لطيف يقدِّم خدماتٍ أحيانًا بالمجان لمن يطلبها من فقراء الرِّيف».

ـ «وماذا عنها؟ أعني عن الزَّوجة؟»

ـ «قلتُ لكَ يا سيِّدي إنَّني لم أرها لم قبل...»

إذن صاحبة العينَيْن المتوهِّجتَيْن ليست أسيرة إطارٍ ذهبي، بل أسيرة زوجٍ غيور، وبذلك أصبحت مهمَّة مقابلتها أصعب، وتحتاج إلى المزيد من التَّخطيط والحذر، فهو يريد أن ينزعها بهدوءٍ ودون أوجاعٍ أو مشاكل من دنياها، لتغدو زهرة حياته، فهو الوحيد الذي وعدته أحلامه بعينَيْها الأسطوريّتَيْن ببريقهما الساحر.

وجاءت اللحظة سريعًا، فقد قرَّر الزوج أن يسافر إلى العاصمة في شؤونٍ يقضيها، كان يراقب سيارة الأجرة وهي تبتعد به. من أعلى قمة التلّة المشجَّرة رَمَق السيارة التي تثير الغبار والأتربة وهي تختفي به، انزلق مهرولاً إلى بيتها الذي يقع في سفح التلّة، الأرض المنحدرة والزلقة زادت من سرعة هرولته التي غدت ركضًا سريعًا لا يسمع خلاله إلاّ وقع ضربات قدميه على الأرض، وصوت لهاثه، كانت مستديرةً نحو حضن الشروق تشيّع بنظراتها زوجها الذي غدا نقطةً في الأفق، انتبهت إليه مفزوعةً، أمسكَ يديها بحركةٍ نزقةٍ أخافتها، كانت كما تمنَّاها تمامًا، هادئةً كبحيرةٍ، بيضاء كنور الصباح، شعرها الأسود معقوفٌ إلى الخلف، بعض الشيب غزا برقّةٍ وسحرٍ ذؤابتيها، على فمها المستدير كما المتاهة ألف سؤال، أما عيناها فلهما البريق المستحيل الذي عشقه.

قال لها باضطرابٍ شديد: «ها قد جئت... أنا أحبّكِ... هل تأتين معي؟»

ـ «مجنون!»

ـ «ولكنّني أحبّكِ...»

ـ «ابتعد عنّي، لا بدَّ أنّكَ مجنون».

وانساحت في موجة بكاءٍ، وطردته مفزوعةً ممَا تسمع. أمضى يومه عاريًا إلاّ من سروالٍ صغيرٍ في سريره، لا يصدِّق أنَّه قد وجدها، وأنّها بعد كلِّ هذا العناء قد رفضته، بل وطردته، تابع لساعاتٍ طويلةٍ دوائر الدخان المتصاعد الذي ينفثه من سجائره التي تحترق بمثل احتراقه، فكّر بألف خطةٍ وخطة لخطفها، ثم انخرط في بكاءٍ مرير، ومن جديد بدأ ألم أسنانه، لكنَّه كان مصمِّمًا هذه المرة بالذات على أن يهمله، أن يقهره، أن يفعل أيّ شيءٍ إلاّ أن يستجيب بذلٍّ لجبروته، أخذ جرعةً مضاعفةً من المسكِّن الذي استغنى عنه منذ زمن، وغاب في دنيا النوم، وجاءت بابتسامةٍ ساحرةٍ، كان جسدها زلقًا بطريقةٍ مشهيّةٍ، انساحتْ في فراشه، كانت عاريةً كبجعةٍ مسحورة، في بحيرةٍ لازورديةٍ محاطةٍ بالأحلام والبجعات المتوّجة. غرق وإيّاها هناك، قبّلت عنقه باشتهاء، فتبخّر ألم الأسنان إلى الأبد، تنفّس هواء فمها، وفي لحظاتٍ تحوَّل ببريق عينَيْها إلى أمواجٍ ملوَّنةٍ تداعب بحيرة صيفيّةٍ هادئةٍ، زرقة عينَيْها انساحت أنهارًا تحاصر جسده المنتشي، وغاب وإيّاها في دنيا من الأطياف الملوّنة، حيث تشظّيا ليغدوا رذاذًا سعيدًا يطوِّق فراشه العتيق.

كان قرْعُ الباب قويًّا، تنبّه وعيه عليه، ثم استيقظ تمامًا عندما دفع أحدهم الباب بقدمه القوية فكسره، في لحظة أحاط

به وبفراشه وبجسده حشدٌ من رجال الشُّرطة بأزواج عيونٍ كثيرةٍ لم يستطع أن يعدّها.. البعض وجَّه له فوهات بنادق متحدِّية، عينا الطبيب هما العينان الوحيدتان اللّتان ميَّزهما من بين العيون المتَّهمة الحادّة كما عينَيْ صقر.

قال الزوج بقسوة: «يا لكَ من مجرمٍ غادر!!»

قال ضابطٌ بحزم: «أنتَ متَّهمٌ بالخطف والاغتصاب والقتل...»

بذل جهداً عظيمًا ليُحرِّك جفاف حلقه، ولينطق بكلمةٍ واحدة، لكنَّه لم يستطع، فقد كان ذاهلاً وهو يتابع جثّتها العارية مذبوحة مضرجة في دمائها، كان مرعوبًا من فكرة وجوده عاريًا مع جثّةٍ مذبوحة أكثر من فكرة أنَّه متَّهمٌ بالقتل. قال بصوتٍ مسلوبٍ يتناوب عليه الخوف والفتور: «ولكنِّي لم أقتلها، أنا أحبّها... أنا لم أخطفها هي جاءت من تلقاء نفسها».

قال الزوج بانفعال: «يا لكَ من عربيدٍ قذر...!!»

قال الرجل: «أنا أحبّها... أنا لم أقتلها صدّقوني... يا ذات العينَيْن المتوهّجتَيْن، قولي لهم إنَّني لم أقتلكِ... أنا

أحــبّكِ... قــولي لهـم إنَّكِ جـئـتِ من تلـقــاء نفــسـك؛ لأنّكِ تعشقينني».

قـال الزوج مُثـاراً كـمـا ثور في حلبـة: «يا لكَ من وغـد!! أتريد أن تلطِّخ شرفها، وتلحق العار بها حتى بعد موتها؟!»

كرّر الرَّجل بعَتَه: «ولكنِّي لم أقتلها... أنا أحبُّها، وهي تحبّني، قولي لهم إنّكِ تحبينني».

لكنّ الجـثّـة الهـامـدة المدرَّجـة في الدمـاء لـم تنبس ببنت شـفـة، كـان يتـابع الجنـود بذهول ودهشـة وهم يلفُّـونهـا بملاءة السرير، ويدسّونها في السّيّارة العسكريّة.

هي دفنت في سفح القرية بين أشجار الفاكهة، وهو سجن حيناً، ثم أودع مستشفى المجانين حيناً آخر، ولكنَّه لم يشتكِ أبداً من ألـم أسنانه، فـقـد كـان يزعـم أنّ حـبـيـبـتـه ذات العـينَيْن المتوهِّجتَيْن قد شفتهـما بقبلتها المشتهاة، أما الزوج فقد اختفى للأبد. البـعض زعم أنَّه مـات حزنـاً، آخرون قالوا إنَّه هو من قـتل زوجته الخائنة، كثيرون أكَّدوا أنَّه يعيش في قريةٍ بعيدة مع زوجةٍ جميلة، يحبسها في بيته، ويمنعها من الخروج... لكنّ العاشق المجنون بقي يبحث عن حبيبته الجميلة، يرتع بين الوديان عارياً بشعرٍ أشعث وجلدٍ مزَّقه البرد، يبحث عن امرأته الجميلة ذات

العينين المتوهجتَيْن، صارخًا بقهر، لتردّد الوديان كلماته التي تذهب سدىً ودون مجيب: «لكنِّي لم أقتلها، أنا أحبّها، أنا لم أغتصبها، هي أسلمتني نفسها طائعةً، أنا أحبّها... يا ذات العينَيْن الجميلتَيْن... ها قد جئت، أنا في انتظارك، هل تذهبين معي؟... ها... أجيبي هل تذهبين معي؟ ها... قولي... هل تذهبين معي... عي... عي... ي...»

# مدينة الأحلام

فقط عندما تتوحَّد الاحلام وتتشابه تفاصيلها تصبح حقيقة، وبكلمة سحريَّة قوامها التمنِّي والمناجاة الجماعيَّة تلفظ البشريَّة جمعاء طلسم الوجود، فينشقّ البحر رغم أنفه، ويتمخَّض بقوة، ويدفع من أحشائه الراكدة ومن زبده المستلقي في هشاشته مدينة الأحلام التي تتهادى على صفحاته، وتستقرّ في بقعة ضوئيَّة يكسوها ضوء القمر الصيفي بوافر نوره. كانت ليلة لا تختلف عن أيّ ليلة من تلك الليالي التي عرفتها البشريَّة عبر تاريخها المديد الغابر، إلاّ أنّ البشريَّة في تلك الليلة وفي لحظة واحدة وبفمٍ واحدٍ ينقسم بين مليارات الأفواه والقلوب والأمنيات والأعراق والألوان تمنّتْ أن تتحقَّق أحلامها، تمنّت أن

تصدف أمانيها أمامها تمامًا، لتذوق طعم ذلك البعيد الذي باتت تتحرّق إليه، وتصبو إلى ضمّه، وتعلّق السعادة على وجوده وتسميه أحلامنا!!

عندما برزت مدينة الأحلام إلى حيِّز الوجود المدرك، اختلفت نواميس الطبيعة، ودبَّت الفوضى في النظام الكوني، كثير من الكواكب غادرت مكانها، بعض البحار غارت في قلب الأرض، وجبال أخرى برزت حيث لا يجب أن تكون، تقاربت مسافات الأرض، وانكمش أديمها، وبات الكون يتلخّص في مدينة الأحلام والبشر الذي يتدافعون نحو هذه المدينة، التي نودي في أهل الأرض أنّه آن لهم أن يدخلوا إلى هذه المدينة التي تحوي أحلامهم، بعد أن فكّوا جميعًا وبلسان واحد طلسم بواباتها التي ستُفتح لهم لأول مرة منذ الخليقة؛ ليحصلوا على أحلامهم وليغادروها آمنين، وقد نالوا رغبتهم الأزليَّة، أي أحلامهم.

في البدء لم يصدِّق البشر نداء السماء، وشعروا بتوجس وريبة، بعض المحبطين والشجعان ورجال الاستخبارات دخلوا تلك المدينة على مضض، كان الكلّ مدجَّجًا بالخوف والطمع. في تلك المدينة كانت الأحلام تنتشر في كلّ مكان، منضدة في رخاوة محار

الأصداف.. كم كانت الأحلام جميلة ودافئة ولها بريقٌ مائي، وطعم حلو، وملمسٌ حنون!! كلّ حلم كان ينتظر صاحبه، وكانت الطرق تتداخل وتتباعد وتتقارب؛ لتوصل ضيف المدينة بكلّ يسر إلى حلمه.

خرج الرّواد الأوائل مبتهجين، يحملون أحلامهم، بعض منهم حملته أحلامه، «إذن فقد نالت البشريَّة حلمها الأرضي» ردَّد البشر تلك الجملة المغمورة في أكسيد السعادة و بكلّ اللهجات والنبرات والأصوات، وتدافع البشر إلى مدينة الأحلام. كانت المدينة صغيرة ذات أسوار بلورية، وقبة شفافة تتراءى السماء والقمر والنجوم في أعلاها، ولكنَّها كانت تتسّع للبشر أجمعين كما اتسعت طوال وجودها السرِّي لأحلامهم، وإن ابتلعتها دهرًا طويلاً، وقلّما لفظت شيئًا منها مكرهة غالبًا، راضية نادرًا، كان البقاء فيها رائعًا، كانت تشبه مِزقة من الفردوس الذي سمعوا عنه طويلًا في كتبهم ومن أنبيائهم، لكن فرحة لقاء الأحلام كانت أعظم وأبلغ أثرًا وأدعى لهم للخروج بها إلى الحياة.

خرج البشر من المدينة الحالمة، كلّ يحمل على عاتقه، حلمه المحفوظ في طاقة من زبد البحر، كانوا يشعرون أنَّ للحياة

طعمًا آخر، ومن تلك اللحظة بدأ تاريخ جديد للبشريَّة، بعض المؤرخين أسماه زمن الأحلام، وبدأت الأيام تُحصى منذ ذلك اليوم. في زمن قليلٍ كان البشر قد تقاسموا أحلامهم، وهجروا مدينة الأحلام، التي بدت خالية من البشر، ولكنَّها ما تزال تمور بالأحلام التي تتجدّد، ولا تعرف نهاية كما لا تعرف بداية.

بعض البشر عادوا من جديد، وبحثوا عن أحلام جديدة وحصلوا عليها، ثم عادوا مرة ثالثة ورابعة، بعضهم بدّل حلمه في طريق العودة، وعاد من جديد يبحث عن حلم آخر، وبقيت المدينة كريمة لا تبخل على أحد بدخولها، ولا تضنّ على إنسان بحلمه.

في البداية غمرت السعادة البشرية التي لطالما تنفَّست المدينة زفير راحتهم وطمأنينتهم ورضاهم، وردَّدت رجع صدى أحلامهم. لكن ماذا بعد؟ لم يعد تحقيق الحلم بمستحيل، ولا تجديده بممنوع، ولا استبداله بمرفوض، كلّ شيء كان موجوداً حتى المستحيل. ولم يعد هناك معنىً للحياة ولا للزمن ولا للعمل، بل لم يعد هناك معنى للوجود، وغرق الزمن في رتابة لم يُعرف لها مثيل، ولا لسلطانها حدود، وغدا حلم البشريَّة أن تجد حلمًا لا يتحقّق؛ لكي تلهث وراءه باشتهاء. وأخيراً شعر البشر

أنَّ مدينة الأحلام قد حطَّمت أحلامهم وحرمتهم من متعة ممارسة التمنّي، ومن دبيب سعادة الجري وراء الأحلام، وفي صوت واحد ومن جديد تمنّى البشر أن تختفي مدينة الأحلام.

ومن جديد فكّت البشريَّة طلسم الوجود، وابتلع البحر على هوادة مدينته السحريَّة، وغاب القمر عن صفحته اللامعة. كان البشر يشهدون اختفاء المدينة، لكنهم اكتشفوا لاحقًا أنَّهم ما يزالون محبوسين مع أحلامهم، غابت مدينة الأحلام، وخلّفت الأحلام وراءها.. كان لأحلامهم سِحنٌ لم يلاحظوها من قبل، طاردتهم طويلاً، وأرهقت أجسادهم، وعذّبت أرواحهم، عرفوا أنّ الأحلام تغدو كوابيس بشعة إن حُبس الإنسان معها، وأصبح عبدًا لها. ومرة أخرى تمنُّوا من جديدٍ بلسان واحد أن تظهر مدينة الأحلام من جديد؛ ليردُّوا إليها كلّ الأحلام والأمنيات.. ولكن البحر صمّ أذنيه عن أمنيتهم،ولم يسمعوا داعي السماء، وأدركوا متأخرين أنّ الأمنيات تتحقّق مرة واحدة وحسب.

أسماء الغول

# هجران على لوح أسود
# وقصص أخرى

إلى ناصر...

السعادة غير المؤجلة

# أنت وأنا

خرجت اليوم إلى الجامعة. أعرف طريقي ولا أعرفه.

نظرت إلى السماء التي لم آلفها حبيسة خلف الغيوم الرماديَّة، وتعثَّرت كالعادة بغطاء المصرف الصحي الذي يمتدّ حتى آخر الشارع، بين جنبات حارتنا المتخمة بأولاد المدارس، وعربات الباعة الجوالين ودكاكين الخضار، والجزّار الذي يلتصق بلحم خروفه المعلق كأنَّه يتدفأ به من لسعات الريح الباردة.

(المهلبيَّة بالعسل ... المهلبيَّة الزاكية)

ابتعدت. التصقت بسور المدرسة كالعادة أيضاً، حتى لا تصدمني إِحدى هذه العربات المزركشة، أو العيون الصغيرة

ببراءتها، تعوَّدت هذا الخجل كلَّما نظرت إلى أطفال المدارس التي تحيط أسوارها تخوم حارتنا الغربيَّة.

أتثاقل في خطواتي، وأراقبهم بتلصص.. تلك الطفلة تبكي بحرقة، وهي تقف أمام غطاء المصرف الصحي كبير الفتحات، فيبدو أنَّ مصروفها سقط في جوفه.. تحاول جاهدة أن تدخل عوداً رفيعًا، لكن دون فائدة، وذلك الطفل يأكل (الكلمنتينة)، وصديقه يراوغه محاولاً اختطاف بعضها، وترتفع ضحكاتهما حتى شعرت أنَّ أصداءها وصلت عنان السماء، وأخرى تحيط أختها الصغيرة بيدها محاولة تدفئتها، وبالأخرى تصلح ربطة شعرها.. يبقون هكذا صغاراً وحميميين، بمراييلهم وقمصانهم الزرقاء مهما تجددت الأعوام.

دقائق وخفت الجلبة، ورجعت إلى إدماني الأبدي على العد، أعد كل شيء متجاور ومتشابه، أغطية المصارف المتلاحقة (كما أفعل الآن)، أدوار المباني، ونوافذها، وشرفاتها، وأعمدة الكهرباء، وأبواب المحال المغلقة.

أبواب الخزانات داخل البيت، والبلاطات، والوسائد، ورفوف الثلاجة، كراسي القاعة داخل الجامعة، ودرجات المبنى، والأشكال الهندسيَّة المرسومة على ربطة عنق الأستاذ.

أعـدها، وأعـيـد العـد، وأسـتـمـتع، وأنسى وأذوب في النسيان.. أنسى وجهك.. ملامحك.. عينيك الملتصقتين في روحي كفراشة بيضاء، التصقت بسيلان شمعة مضيئة.

وأتذكَّرك.. أتذكرنا وتلك الأيام الجميلة، والفرص التي غدت غير ضائعة، لأنَّنا معًا، ونداء الرحيل الذي لم يعد يخيفنا، لأنَّنا معًا والشمس تشرق، وتتبخر قطرات الندى آخذة معها كل الألم، لأنَّنا معًا..

وأعيد العد: خطوة.. اثنتين.. ثلاث.. أربع..

وأنسى أنَّك شاركتني جنوني وعددت معي ذات مرة المتشابهات، واحتملت أحاديثي وحكاياتي بكلّ تفاصيلها المملة، واحتملت عاداتي وصفاتي السيئة، أو التي كانت سيئة بنظرك على الأقل، واحتملتني أنا ذاتي، بكآبتي وأخطائي وصمتي وانعزالي حتى عنك، من هنا اتّسع الجرح وزاد النزف.

وأبدأ العد من جديد، كم مرة يطبق الدكتور شفتيه وهو يتحدث؟

ـ «علم المعاني يدرس أساليب الخبر والإنشاء لغرض فني وليس نحويًّا، وأضرُب الخبر تعتمد في تصنيفها على حال المخاطب، خالي الذهن أو متردِّدًا ومنكرًا».

ـ «ولكن المتكلم يا دكتور أين هو من حديثه؟ فليس شرطًا أن يكون لكلّ متكلّم مخاطب، وكثيراً ما يتخيَّل المتكلِّم وجود مخاطب.. ولكن الهدف في الأساس التعبير عن وجدانه ومشاعره!».

ـ «المتكلم دائمًا يعلم في داخله أن هناك من سيقرأ كلامه أو يسمعه.. ويبقي هذا بمثابة رقيب على أساليبه الخبرية».

وأعيد العد.. مرة.. اثنتين.. ثلاث.. كي أنساك، وأنسى كل شيء، حال المخاطب ودور المتكلم، وأنَّني يجب أن أكون هو، لترجع السماء وأراها صافية من سطح منزلكم، لكن كل ذلك بلا فائدة، بلا طائل، فالعالم هو العالم حتى عندما نخلو نحن والصفاء منه.. قد يكون مغبشًا.. باهت الملامح.. نفوسنا فيه غريبة وأرواحنا شريدة.. لكنَّه هو العالم ذاته، سائر على حزن أيامه الماضية وغموض القادمة، غير عابئ بأنَّه انتهى حين انتهينا ولو كان انتهاؤه للحظات.

وأعيد العد، وأنسى أنَّني تذكّرتك، وأستمتع وأذوب في النسيان، وأنسى تلك الغيوم المفروشة، وأمطارها الناعمة التي جمعتنا مراراً خلف النافذة، ورائحة التراب المعتق، وأركض في شوارع مبلَّلة تمتدّ ثعابين لامعة، فارغة الا من أشجار الكينا، تلك

التي تذكِّرني ببوابة مدرستك الابتدائيَّة.. أو أظن أنَّها الإعداديَّة، وحارس المدرسة الذي اعتاد لملمة أوراقها وحرقها، على ذمة حديثك.

شجرة.. شجرتان.. ثلاث شجرات..

أركض، وتتسارع ملامح الصور حولي وتضيع الأرقام، وتبقى رائحة الكينا عالقة في حلقي، وبقايا حشرجات محنطة.

قطرة.. قطرتان.. وذلك على الرغم من أنّ مظلّة الدكان لا تسرّب الماء، ثلاث قطرات.. أربع.. وأزداد التصاقًا بنفسي، أراقب سيارات الأجرة الصفراء الراكدة في الموقف، بعد إغلاق الجيش لمداخل المدن، وأذكر طريقك اليومي إلى البيت وساعات الانتظار، وعشرات القصص والشكاوى التي يرويها لك الركاب ثم ترويها لي، وأسخر منك (عندك آذان للتأجير).. وتتدفق قصصك: «ذلك الرجل يحمل كمبيوترًا يدويًّا ويفتحه أمام الركاب والعالم، تخيّلي التكنولوجيا في عتمة الحصار، وآخر يبكي بصمت ولا يتوانى عن رواية قصته للجميع: عين ابني الزجاجيَّة التي ركّبها بعد إصابته برصاصة معدنيَّة سقطت أمس أمام زملائه على كتابه المدرسي، وتلك المرأة اللاهثة تحمل

أولادها الكثر في كل مكان، وتصرّ على تمريرهم بين الركاب (عندها هوس أمني)».

تسع سيارات.. عشر، والأمطار تتلاشى.. أربع عشرة سيارة.. وأمشي بمحاذاة الحائط تلافيًا لبرك المياه.. عشرون سيارة.. إحدى وعشرون سيارة.. ما هذا؟ متى سأكفّ عن العدّ؟ حاولت مراراً أن أتذكَّر أول مرة عددت فيها لكنّ الضباب حال دوني وذلك السفر، إنّه يسبِّب لي الصداع خاصة عندما أمسك نفسي متلبِّسة به، أو يرتفع إصبعك فجأة يتَّهمني (إنَّك تعدِّين من جديد وتتركيني أثرثر).

ثلاثة قبور... ستة قبور..

اقتربت من البيت، فها هو المعلِّم الأثري الوحيد في المنطقة.. إثنا عشر قبراً.. خمسة عشر..

وأنسى أنَّنا سنغدو أرقامًا نحن أيضًا، وأنَّ هناك من سيدفعه الفضول، مثلما فعلنا أنت وأنا ذات مرة، ويزور المقبرة ليكتشف أحدث القبور وأقدمها.. وربما ستكون حفرتنا أحدثها، وربما ستعجبه اللعبة، ويحفر لنفسه قبراً آخر.

ثمانية عشر قبراً.. واحد وعشرون..

ما أصعب عد القبور.. وكم نحن قساة والحياة قصيرة، وبداياتها.. آه من جدب وحيرة تلك البدايات!

غطاء.. غطاءان.. ثلاثة أغطية.. رجعت لأغطية المصارف المتلاحقة مع نهاية النهار، وأنت وأنا نحب النهايات، اللحّام يستعد لاغلاق أبواب محله، وأتخيَّل ردّة فعلك لو همست لك (يبدو أنَّه فضَّل لحم زوجته على لحم خروفه).

وأطفال المدارس رحلوا مخلفين آثارهم أملاً في الرجوع، والشعارات الوطنيَّة تملأ الأسوار، وأتساءل أيّها أجدى في الكتابة الجداريَّة، الجمل الإنشائيَّة أم الخبريَّة؟ وتمنَّيت لو أنَّني شاركتك السؤال قبل ذلك.

وأعيد العد، خطوة.. اثنتين.. ثلاث.. وأذكر أنَّ هناك الكثير من المتشابهات في المنزل لم نتشارك في عدِّها بعد.

ونبدأ أنت وأنا والعد نكتب قصتنا من جديد: خرجت اليوم إلى الجامعة أعرف طريقي ولا أعرفه.. نظرت إلى السماء التي لم آلفها حبيسة خلف الغيوم الرماديَّة، وتعثَّرت كالعادة بغطاء المصرف الصحي..

# قبر أمي

معالم قبرها تغيَّرت عن آخر مرة زرتها فيها، فقد غدا القبر كئيبًا أصفر، بعدما كان لونه الأبيض يعزِّي روحك قليلاً.

«آه يا أمي كيف سيغدو قبرك بعد بضع سنين».

آه لأمه، تتعثَّر خطواتك حوله... تتناثر معها الحجارة، تمامًا مثلما تتراشق شظايا روحك في كل زيارة.

«لو أنَّك تعرفين يا أمي، ماذا يحدث لي بعدك؟ بالأمس ساعتي توقفت لأول مرة، منذ اشتريتها لي قبل ثلاثة أعوام».

وغدوتَ مرتابًا أن توقفها بمثابة إنذار لموت قريب، أو بالأحرى «موتي أنا، المشكلة ليست أن أموت ولكن أن أنتظر.. أنتظره...».

بالأمس توفي أبو فتحي صانع الفخار، جاركم.. في الماضي حملتك أمك صغيراً، إلى هناك، تشترون أواني الشرب خفية عن أبيك، بعدما تعوّدت كسرها.

كَبُرَ سعد قليلاً وغدا يذهب وحيداً، يدخل من فتحات الشِباك التي تنثني بسهولة، ويتسلَّل سعيداً بعدما يطمئنّ إلى دخول (أبو فتحي) إلى بيته، الذي تفصله عن الكشك ستارة خضراء قذرة رُسمت عليها ورود بنية، وتبدأ لذتك مع الطين الذي ترك آثار شهوته على ملابسك، وتصرخ أمك: «البقع صعبة على الماء المغلي والزهرة».

ذات مرة رفعت الستارة الفاصلة، تتلصَّص على الرسومات الأخرى، ووجدت (أم فتحي) تلهو بزوجها.

«أتذكرين يا أمي، بعد فترة، ليست بالقصيرة، أخبرتك بالقصة، قلت لي حينها بحرج: ناس ما بتستحي».

«لم أزر الكشك بعد ذلك، فيداي لم تستطيعا ثني الشِباك بعدما رآني صانع الفخار، وأوسعني ضرباً».

قبل يومين، وقف صبحي، مجنون الحارة، وأشار بيده السوداء إلى المقبرة، وقال: «هنا المحكمة».

دقّ سعد رأسه بسور المقبرة، حيث كان يقبع في إحدى زواياها، يراقب النباتات النامية فوق قبر أمه، وقال: «صبحي الكلب، الذي لا يجيد سوى المواء، أرعبتني كلماته».

نظرت إلى معصمك، ساعتك لا تزال متوقِّفة، وأنت مازلت ترتديها، وصبحي ما زال يصرخ.

«ابنتي الصغيرة، أتذكرينها؟ أخبرتك عنها في الزيارة السابقة. صباح اليوم أمسكت ذقني بأصابعها السمينة القصيرة وقالت لي: بابا ليش انت زعلان؟ كدت أنفجر بالبكاء. لم أحدِّثها عن الانتظار الحتمي، ولم أنظر لعينيها الضيِّقتين، اللتين تشبهان عينيك. زحفتُ مثل طفل تائه إلى سرير أمها، وشكوتُ طفلتنا لها».

مكثتَ في حضنها، تحدثها تارة وتبكي تارات أخرى... ندمت فجأة وهمست: «أمي ليست مجرد ذكرى».

تغيَّرَ كثيراً منذ رحيلها عنه، فمنذ الصبا أصابته عقدة أوديب، يفكِّر فيها كثيراً.... «الموت خروج خاطئ عن قوانين الزمن».

تضاعفت حيرته، كان قبرها الدال الوحيد على اختفائها، فلازمه تدريجيًّا.

عند الفجر، وَجد صبحي المجنون جثتك زرقاء، متَّكئة على قبر والدتك. أخذ يفتش فيك ويركلك، أعجبته الساعة الفضيَّة في معصمك. سرقها، وراح يضحك بهستيريَّة.

تنظر ابنة سعد إِلى أمها الجميلة. تستغرب بكاءها المتواصل، ثم تنظر إِلى أبيها المسجى على السرير: «بابا ليش انت ساكت؟ ماما قولي لبابا صبحي رجِّع الساعة، وعقاربها عادت لتتحرَّك!!».

# هجران على لوح أسود

هكذا بدأتْ، التي هجرتْ زوجها الشاعر يومها: تناولت طبشورًا، وكتبت: «من الجميل أن تهدي كتابك لآخر ليس له علاقة بمضمون أو زمان أو حتى تحرير هذا الكتاب! وربما كانت فكرتي هذه سطحيَّة نوعًا ما، ولكن الأجمل أن يعود الآخر فيهدي الكتاب لصاحبه الأصلي، أما هذه ففكرة مضحكة».

كتبتْ هذه العبارات على اللوح الأسود في اليوم العشرين على هَجْرها لزوجها، ثم أكملتْ طريقها إلى الحمام، وكم تكره حمّام شقتها الضيِّق، فمرآته معلَّقة تحت لمبة شديدة الإنارة، تصدمها، ليس فقط بسواد الهالات تحت عينيها، إنما بكلّ نقطة نمش باهتة حول أنفها، والأفجع من ذلك هو اضطرارها لرؤية قَصة

شعرها الجديدة، فيتأكَّد إحساسها كلَّما دخلت الحمام أنَّها ليست سوى خنزير صغير ملطخ.. إنَّها تمقت تلك الصباحات التي لا يشفع لها سوى اللوح الأسود.

كانت البداية: لوح عادي تسجل عليه المواعيد المهمة أو ملاحظاتها اليوميَّة، لكنَّ زواجها انتهى به إلى دفتر مذكرات، هي لم تقصد ذلك، لكنَّه غدا دفترها الصريح والمحدود المساحة... وربما كان صريحًا إلى درجة غير مرغوب بها.

فمثلاً تخيَّل أن تدخل منزلك بعد ليلة قضيتها مستمتعًا مع أصدقائك في محاولة لإخماد نار الماضي المكشوفة، وتجد في انتظارك على السواد المهدور: «قضيت ليالي ونهارات مفتوحة على الأبد في تبرير عنادي وانتظار الحب الحقيقي.. المعجزة».

أن تجد نفسك كل يوم مجبرًا على قراءة ما كتبته في لحظة نقاء أو شعور بالذنب، لهو مقصلة أقمتها لقلبك، وإذا قرَّرت بعدها ألا تكتب فسرعان ما ينعكس صدى سواد اللوح إلى عقلك.. الهروب.

ظهر اليوم الثلاثين كتبت: «إنَّ الزواج بشاعر ليس الألم وحسب، وليس الحب وحسب، إنَّه النهاية القصوى لكلّ ذلك.. إنَّه يحوِّل المرأة لكائن، إما شديد التنمر أو مدمن عبوديَّة».

لم تعد قادرة على تحديد مصير اللوح الأسود، فقد أصبح مخلوقًا شديد الحيويَّة والتطلُّب، جعلها تهمل الكتابة الطبيعيَّة، وتتجاهل نداهة الحب والحياة، وتكتب في اليوم الأربعين: «نادراً ما أعجبني ما يكتبه في مقاله الأسبوعي، ربما لأنَّني لم أعتد هذه الكتابة المترفة، ولا أقصد الأوراق الناعمة الملونة، رغم أنَّني طالما أحببت الأوراق الفقيرة الصفراء، للكتب والمجلات التي شجَّعها الفكر الاشتراكي، ليتساوى الجميع في القدرة على الشراء ـ هذا ليس موضوعي ـ بل أقصد ترف أنَّ كل ما يكتبه عن ذاته ومعاناته وتجاربه، التي نادراً ما تكون نابعة من الهمّ الحقيقي للإنسانيَّة، فتتكرَّر الألفاظ والأحزان والذكريات وحتى الاندهاشات تصبح مألوفة، فيزكم إدراكك كقارئ يحمل نقاوة كويلهو وكنفاني وماركيز، ويزداد المضمون برجزة حين تحدث هذه المعاناة والحياة في مصاعد زجاجيَّة.

كلَّما فكَّرت وحلَّلت أكثر تزداد مقصلة القلب حدّة وتفتُّتاً لأنَّها تدرك أيّ اختيار سفحت فيه حبها وأحلامها، وفي اليوم الخمسين كتبت: «تمر الأيام بطيئة جافة تجرحها لحظات ينهمر ويفيض فيها ما كبته الانتظار، ربما صوت عاد بالأمل، وربما إهداؤك كتاب شعر... كتابه الجديد... لن أنكر أنَّني معجبة بقصائده النثريَّة... وعيه بالقصيدة الحرّة، وموهبته

الحقيقيَّة تمتصّ ببساطة كل شوائب مقالاته. لست على دراية كافية بالشعر لمدحه، لكنَّه فقط ذاك الإدراك بأنَّ ما يكتبه يشف روحك خوفه وحبه ووداعه، وحتى موته، إلى درجة أنِّي أعرف أنَّها قصيدته فور سماعي لكلمة واحدة منها، فأتذكَّر فجأة: أجواءه، وكلماته وحالاته ونساءه، إن كتابه تجسيد لشغفنا بالهلاك والحب».

كان أصعب ما يمكنها عمله يوميًّا مسح اللوح لتملأه من جديد، رغم أنَّ فراغ اللوح من بياض الكتابة يشعرها أحيانًا بالراحة والخفة.

تسعون يومًا مرت، وتشعر بالسعادة لأنَّها المرأة الوحيدة ممن كنَّ في حياته التي لن تتساءل وهي تقرأ قصائده، هل يقصدني هنا؟... المرأة الوحيدة التي تركته ولم يتركها هو... المرأة الوحيدة التي لا تبالي بهذا التَرْك، وإنما بمداواة جرحها ولوحها الأسود.

اقتبست في اليوم المائة: «ليس من الضروري معرفة شياطينك الخاصة لكي تجد الله».

وفي اليوم التالي تبرَّعت زوجة الشاعر بلوحها إلى حضانة الأطفال المجاورة لشقتها الكريهة.

## إدراك

يرفض إعطاءها تلك الإقحوانة النضرة أبداً/ ذات جرح أشفق عليها ومنحها حزمة زنبق تحتضر/ لو أدرك المسافات بين صراحة مبادئها وقبولها تلك الحزمة/ لأشفق على نفسه!.

# حيرة

بين زهرة دفلى تحـيـيني ومـاء راكـد يشلّني / بـين نورس خفاق يسكنني ونبيذ معتق يغيبني / أنا غجرية عاجزة.

# ورقة واحدة مشوّشة

ورقة واحدة وعينان حزينتان كأولئك الدراويش الهائمين في حضرة التواشيح والذكر، هذا كل ما تملكه حين يشدّها تجلي اللغة من شرايين قلبها لتدخل إلى نار الكتابة وتحترق بألسنتها... تعرف أنّ ورقة واحدة لا تكفي كي تكتب إلا أنَّها غالبًا لا تمتلك غير ورقة واحدة وبالأحرى ظهر ورقة مشوَّشة بالكتابة من الجهة الأخرى.

وتصبح الكتابة عندها ليست فقط موسومة بقلق المعنى بل بقلق آخر فني. إنَّه ضيق الورقة أمام اتساع اللغة.. ومتأكِّدة أنَّ هذا القلق الفني الذي يعكِّر صفو السرد ليس صدفة بل هي من يتآمر على هذا النقص.. فالبياض يخيفها

ويجبرها على ملئه بنزيف كتابة يقرّبها من الموت للوصول إلى النموذج.

وهذه الرغبة في الوصول تلحّ عليها الآن فلا تجد سوى أكوام من الدفاتر المنتهية صلاحيتها بعد أن تزاحمت بها آلاف الكلمات.. إنَّه جنون حين تدرك أن هناك دفاتر خالية من بعض فراغ.. والأدهى أن تكون غارقة بمسائل الميكانيكا والرياضيات التي تكره المنطق غير المبرر فيها فلماذا ١+١= ٢؟.. إنَّه منطق فارغ يشبه الغوص في بئر عميق ثم الخروج بلا شيء.

..أخيراً وجدتْ بضعَ صفحات بيضاء في نوتة أرقام هاتفها فكتبت عن المنطق في الحب، متذكِّرة حبيباً عرفته وكان يؤمن بالمنطق وعقلنة العواطف إلى درجة أنَّه وضع لهما جدولاً يتقابلان وفقه والاستثناءات نادرة جداً، فكان ذلك سبباً كافياً ليخيِّم الصمت على علاقتهما وترحل عنه مصابة بالحنين والهذيان... ولم يستحق منها بعد ذلك سوى ظهر أبيض لورقة مشوش أمامها بالكتابة... أحياناً يشدها نزيف الكتابة إليه فتمسك بتلابيب اللغة وتوقف السرد المشتعل بالأزمنة الحميمة والأمكنة الغائبة، عن الجريان.

# تأويل الحرير

طرْقات شديدة على الباب / وسقطت كرات الحرير / إحداها تحت الكرسي / القطة تموء وتسحب أخرى / تصطدم برِجل الطاولة / الصورة ذات الإطار المطرّز تهتزّ / رائحة البحر الحرّيفة تعبث بالستائر / ازدادت الطرقات / تنحني العجوز وعيناها اللامعتان معلَّقتان بالنافذة / تلمح الأنوار عند الميناء / وتبتسم لغد محمَّل بأميلات العودة / تلتقط الكرة الصفراء / وتتمنَّى لو أنَّ الخضراء أقرب / النور يتصاعد / ترتدي نظاراتها / هدأت الطرقات / ترجع إلى مقعدها / ترقب الخيط حول القطة / لا جدوى من جمع الكرات / أو صنع الإطارات المطرزة / لو أنّ سمعها يعود.. / لتسأل كيف الضوء تحوَّل نارًا!

# جلوس

جالسة أعلى الدرج/ طفلة تحمل سكينًا تتسلَّق نحوي/ مددت يدي لإبعادها/ لكنَّها تتسرَّب إليَّ بخفة/ أقاومها بتشتُّت/ أحرِّك ذراعي ورأسي في كل اتجاه/ علَّني أدحرها/ لم أنجح. اكتستني تلك الطفلة/ مزَّقت سكينها روحي بدهاء غاب عنِّي/ يوميًّا هناك طفلة تحمل سكينًا، وموتٌ داخلي يتجدَّد.

# رجل في الأربعين

هي لا تعرف ماذا يعجبها في رجل يكبرها بعشرين عامًا، أو حتى لماذا تحبه؟ لكنَّها لا تنكر أنَّ الأمر مثير، ربما لأنَّه يملك سلطة عليها، في حين لم تخضع قبل ذلك لسلطة الرجال.

في نظره، هي جميلة، وتكتب له قصائد تدهشه، وذات ضوضاء، وتغيظه دائمًا بأنَّه لا يسرد النكات جيِّدًا، مثلما تفعل. ويشعر أنَّها نوع غير مألوف من النساء، يرغب في تجربته.

أحيانًا يتجادلان، ونادرًا ما ينتهي الجدل ببكائها، وفي كل الأحوال يرضخ باختياره. وهناك أيام تقضيها بكاملها في مصالحته.

هذا المساء اقترب هو من حافة الجنون، فقد تأخَّرت عن موعدهما. أخذ يراقب الكتب المبعثرة على الرفوف الخشبيَّة البيضاء، التي قالت عنها حين دفعها إليها في لحظات حبهما: «أبعِد قبلاتنا عن أرشيفك الكئيب».

ينظر إلى ساعته. يتناول القهوة، وأحيانًا يراقب نفسه في المرآة، متذكِّرًا حين همست في أذنه: «لن أتركك بسبب وجود الشيب في شعرك، فلا داعي لصبغه».. يبتسم: «كم أحرجتني ليلتها.. إنَّها تحكمني»، وأحيانًا أخرى يكلمها (نفسه): «تخيفني مشاعري وضعفي عن ملاحقتها.. الأمر تجاوز حدّه».

في اليوم التالي دخلت مبتسمة إلى مكتبه، تعتذر عن عدم حضورها، لكنَّه لم يدعها تكمل: «لا حاجة لأيّ أعذار.. لم يعد هناك ما يقال بيننا»، وكأنّ رصاصة أصابت قلبها. خرجت مسرعة. لم تفهم ماذا حدث؟ كتبت له العديد من الرسائل والقصائد، محاولة اجتياز العشرين عامًا، التي ظهرت فجأة، لكنَّه كان جامدًا وباردًا، مثل حجر الصوان. كان كأنَّه ينتقم من حبه.

مرت الشهور، وازداد افتقادها له، فأغرقت نفسها في العمل، لكن تفاصيلهما الحميمة لا تغيب عنها. تستنشق

رائحتهما في شوارع المدينة، التي لا تخلو من أصداء صوته المبحوح. وحتى نكاته السيِّئة تلبّستها، فيزداد ارتدادها إلى داخلها، وترى لأول مرة امرأة حزينة.

كان يريدها أن تكرهه ليرتاح ضميره، فكرهته. ورويداً.. رويداً حقدت على كل ما يذكّرها به.. الأزقة، والكتب التي تناقشا حولها، وكل من يتكلَّم بلكنته المميزة تلك، أو يمتلك عينين تشبهان عينيه.

بالغت في تجنبه لتخفي عذابها. شدّت أزر نفسها حتى أصبح رجال المدينة أشباحها.

في إحدى الأمسيات الشعريَّة انتظرها أحدهم عند باب القاعة، بدا أنَّه كبير في السن رغم وسامته، دعاها إلى فنجان قهوة لنقاش ملامح ديوانها القادم، وكانت هناك دعوة من نوع آخر في عينيه اللوزيتين. خطت معه الخطوة الأولى، وعند الثانية تنبَّهت إلى نفسها، واعتذرت ضاحكة: «حين أتأكد أنَّني لا أعاني من عقدة الكترا سأبحث في الدليل عن رقمك، وأتصل بك».

# أرق السياق

كان من الممكن لها أن تنام ببساطة كباقي الناس، لكنَّها مصابة بلعنة التساؤلات، ولعنة البحث خلف المألوف، وغالبًا لا تجد سوى الفراغ. لا تدري هل ذلك لأنَّ عقلها عاجز أم أنَّ هناك بطبيعة الحال من يبحث وينجح؟!

يتشاغل عقلها في الأسهل، إنَّها الاقتباسات «الأرق حالة وعي» كما يقول إميل سيوران، وكل ليلة تقضيها مع وعي السؤال يتأكَّد لها ذلك بشكل مذهل، حين تبدأ الأسئلة المتولِّدة تنهش لحم الليل.

ويؤرقها الليلة موضوع الكتابة والسياق، الذي من المفترض أن تتبعه مع كل نص جديد. سياق، أليست كلمة تشبه الأفعى،

ليس لأنَّ حروفها تخرج ممدودة فقط، بل بمنظرها الجميل الذي يخدع للاقتراب منها، فتجد نفسك ملدوغًا بورطة السرد، وخلق السياق.

وكم تحب هذه الورطة، وكم تكره السياق الذي تكتب فيه الآن. إنَّه بصيغة الغائب على لسان الراوي، وهي إحدى الصيغ المتعارف عليها في شكل الكتابة الذي غالبًا ما يستدعي اتجاهات السرد الثلاثة: (كان من الممكن لها أن تنام) و(كان من الممكن لي أن أنام) و(كان من الممكن لك أن تنام)، وحتى ما يسمى بالتعدُّد الصوتي «البليفوني» تشعر أنَّه محبوك أكثر من اللازم، حارمًا القصة من خلقها الطبيعي، ويفضح حالة وعي الكاتب بكتابته عند القارئ.

وهنا المعضلة أن يشعر القارئ أنَّك تستعرض عضلاتك السردية ولا تكتب، أو كما قال لها أحد الكتاب حين أصبحت البليفونية لعبتها: «ابنتي لا تجعلي التكنيك يتحكم في فكرتك». تتذكَّر أنَّها يومها حاولت إقناعه أنَّ المضمون يجبرها على اختيار التكنيك، وسألته في المقابل لماذا يضطر الكاتب للاستسلام إلى العادي في السرد، في حين يستطيع أن يشارك القارئ في اختيار سياقاته؟ كما فعلت إيزابيل ليندي في رواية

أفروديت، وطرحت على المتلقي جنونها وحيرتها، ليختار معها شكل الكتابة ونوعها، وهل تكتب رواية أم كتاباً للطبخ، أم دليلاً جنسيًّا؟

ولا تنكر أنَّها سرعان ما تأثَّرت في نصوصها اللاحقة بتكنيك رواية الخيميائي، التي سحرتها بسرديتها البسيطة، ومضامينها العميقة، دون أن يستخدم كويلهو نظمًا معقّدة لعباراته، فاختار الكتابة بصيغة الغائب.

ورغم قناعتها بأنَّ تلك الصيغة، أو صوت الراوي الإله، كلاسيكي أكثر من اللازم، خاصة وأنّه يبدو في السياق عارفًا بكل تفاصيل الشخوص بشكل غير مبرّر، إلا أنَّها كتبت عبره العديد من نصوصها، فقد أثبت لها كويلهو أنَّه المستوى الصوتي الوحيد الذي ينقل للقارئ الحالة الإنسانيّة، متجاوزاً إشكاليات اللغة والقص معًا.

وهنا زاد أرقها أرقًا، حين خطر لها سؤال آخر حول إذا ما كانت الغيرة الأدبية دافعًا جيِّداً ومثمراً للإبداع. إنَّه سؤال يبعث قلقًا جديداً، يبحث وراء المدى المسموح به للتأثر الأدبي، وتريحها إجابة على هذا التساؤل، عبارة بورخيس «لا ينبغي لكاتب أن يدعي لنفسه الأصالة في الأدب، فالكتَّاب كلّهم

ليسوا إلا نساخ أمناء إلى حدّ ما، ومترجمون لنماذج أصيلة موجودة مسبقًا».

ليلتها تزداد تعقيداً، وتتذكَّر عبارة وجدوها من آلاف السنين منقوشة على حجر «لا جديد تحت الشمس»، حياوات البشر تتكرَّر وأساليب السرد ذاتها. وأسئلتها تتمركز ولا تتغيَّر، كيف تصطاد لحظة الواقع مباشرة، بعيداً عن ثقل السرد الذي يسرق وهج الناس والحياة؟ ويشطح عقلها إلى معضلة الكتابة منذ مئات السنين، لماذا لا توازي تعبيرات اللغة أحداث الحياة؟ وهنا تستسلم.. وتنام.

# تفاصيل رجل عاشق

أَنظر إلى الساعة. إنَّها الواحدة وسبع عشرة دقيقة بعد منتصف الليل، يعني أنَّ عقارب الساعة في منزلك تشير إلى الثالثة وثماني عشرة دقيقة فجراً.

أتخيَّلك ترتدي بيجامة قطنية بيضاء، وربما ذلك (الترنغ) الأزرق.. تمشي حافيًا بأصابع قدميك الطويلة المشعرة، متنقِّلاً بين أرجاء منزلك وحيداً، وربما تتوجَّه إلى الثلاجة متناولاً زجاجة الماء، فتشرب، وتشعر فجأة عندما ينزل الماء إلى جوفك كأنك لم ترتوِ أبداً.. (قَلِق كلانا يعرف ذلك..)

ترجع إلى الكنبة الزرقاء، تجلس أمام التلفاز وأنت تكرِّر الأفلام ذاتها.. تنعس.. تتوجَّه إلى المطبخ.. تسمع صوت

خطواتك وأنفاسك لأنَّك وحيد.. والمنزل واسع والمنطقة هادئة، ولأسبابٍ أخرى، مثل أنَّك تثير ضجة كبيرة بالنسبة لقدمين اثنتين فقط.

وليست خطواتك وحدها ذات الصوت المرتفع، ويداك أيضًا تثيرانه بعبثهما بالأواني، وأنت تحاول صنع القهوة. إضافة إلى تكات الولاعة كل خمس دقائق.

وهناك ضجة الأضواء التي تتناساها مُنارة في المنزل، متلمسًا الونس، وربما ضوضاء قرية «البندار» النائمة في ذاكرتك.

القهوة بدأت تغلي وأنت تراقبها. لا شيء يستعجلك.. الفيلم تستطيع أن توقفه، أو تعيد لقطاته، والزمن ملكك في مثل هذه الأوقات، لتمارس حبك في مراقبة التفاصيل.

ترجع الى الكنبة الزرقاء.. تضغط زر التشغيل، ليأخذك سكون الحركة إليها.

إلى تلك البعيدة الجميلة، كما تحب أن تناديها.. إلى تلك التي كتبت لها «يا لجهلي بهن قبلك».

تهزّ رأسك محاولاً التركيز على الشاشة، إلا أنّك سرعان ما تضيع في امتداد البصر حولك، وتتخيَّلها تتنقل بين الغرف

بقميصها الحريري.. حافية هي الأخرى، تطفئ الأنوار خلفك، مذكرة إيّاك بالتوفير والمستقبل، وأنَّك لست بحاجة لخلق ضوضاء، فضوضاؤكما تكفي..!!

تعاتب نفسك على أحلام اليقظة تلك، وتذكرها «نفسك» أنَّك كبير كفاية لتلزم الواقعيّة.. وتنسج لروحك الطريدة القلق تحت مبرّرات نظريات المعرفة، وعدم اكتمالها بينك وبين البعيدة.

تستيقظ في اليوم التالي مصراً أن تنسج لها القلق أيضًا، تخبرها بهواجسك الليليَّة الكثيرة، وعندما تحزنها، تتذكَّر قدميك الحافيتين الوحيدتين، وبيجامتك البيضاء الخشنة، فتناديها بالجميلة، وأنَّ إحساسك بها يكفيك، وتهمس لها: «لا يهمك فالمعرفة قيد».

فتردّ عليك البعيدة: «إذا كانت المعرفة حدسيّة بالتأثّر المباشر، ومنطقية تأتي بالمجهود العقلي كما يقول بنديتوكروتشه، فماذا تبقَّى لي كي أعرفك؟ غير أنِّي لا أزال أجهل طعم عينيك».

# إلى نائلة خليل
# / بدايات

اليوم فقط بعد ثلاث سنوات على استخدامها نظرت إلى نوتتي فاكتشفت أنَّها أليفة وقريبة من قلبي، واليوم أيضاً شعرت أنَّ حبِّي له منساب إلى مسامي.. نظرت إلى عينيه الضيِّقتين فعرفت أنَّهما تشبهان عيني وأنِّي منه وهو منِّي وليس مجرد أن قطاراتنا تجاورت في محطة اضطراريَّة إسمها الأمومة.. نظرت إليه طويلاً يستدعيني الشوق بسهولة دون غبش... فكانت هذه بداية الحب.

* * *

منذ كنت في الثالثة وأنا أعرف أنَّ شأني سيكون كبيراً وأنتظر المصادفة أو تطوراً طبيعيًّا ليتحقَّق ذلك الشأن، لكن

الأعوام تمر والفشل يتلاحق، لأكتشف ألاَّ شيء تغيَّر. فأقنع نفسي بأنَّها الظروف وليست الإمكانات، لكنِّي اليوم عرفت أنَّ الموهبة درجات وأنِّي موهوبة بتواضع، لذلك قرَّرت ألاَّ أبكي على أحلام طفلة متفائلة... فكانت هذه بداية الرضا.

* * *

اتصلت بي بصوتها المبحوح المثير وقالت: «في بلدتي الأشياء تنعى الحياة»، تأثَّرتُ وقلتُ لها: «الأمل قلب الأبديّة وكابدت دموعي»، فأردفت: «أتصدقين قبل اعتقاله طلب منِّي أن أصنع له منسفًا باللحم، أكل كثيراً وضحكنا ثم غادر وأخشى ألاَّ أراه مرة أخرى».. فكانت هذه بداية الفقد.

* * *

تمطَّى الوعي بعد صراع طويل مع النعاس، وأفقت أنظر إلى نفسي في المرآة فلم أخف من الأوهام، واستطعت لأول مرة بعد أقل من عامين أن ألتقطَ نَفسًا دون غصة حلق أو ارتفاع حرارة القلب. سافر الخوف بعيداً مع فراشات الذاكرة... فكانت هذه بداية الأمان.

# ثرثرة لطيفة

حدثوني أنَّك تمتمت اسمي بعدما أفقت من العملية الجراحيَّة في ضرسك، ولم يعرفوا بعد أن كل ما بيننا كان ثرثرة لطيفة، لا تجتاز قضبان القلب، أو حتى علموا بشجارنا الأخير، وحديثك العقيم عن النماذج التي غدوت محصوراً بها، وكنت ذاتك أحدها.

البداية جميلة، وكم بريئة البدايات، خاصة في محل لبيع الزهور، حين بدأ صاحب المحل العجوز يتحدَّث عن «عدلي جاسم» كاتب المقالات المعروف في تلك الصحيفة اليوميَّة، رافضاً دعوته إلى تجنُّب الكفاح المسلّح. وأنا أحاول تجاهلك أثناء ثرثرة صاحب المحل الملتحي، محدِّقة في الزهور، رغم أنَّني كنت

أراقبك: «كم هي دقيقة ملامحك، خاصة حين تزمّ شفتيك عقب تفاخرك بأنك تكتب في الجريدة ذاتها، لكن في الشؤون الثقافيَّة».

أتأمَّل يديّ العجوز وهي تصنع لي ولك باقات الورد، وأطلب منه مراعاة أنَّها مهداة إلى مريضة. يسألني صاحب المحل «خير إن شاء اللّه؟».

ـ أنت تعرف كيف نتحوَّل فجأة إلى تعساء ومرضى، اكتشفوا إصابتها بالسحايا (إلتهاب في المخ) في فترة متأخِّرة.

أحدِّثه.. لكنَّني أشعر بحركتك أثناء تسجيلك اسمك على بطاقة الورود. تعرَّفت إليه.

سألك العجوز: «ماذا تكتب في الجريدة؟».

ـ ربما الشعر.

بعد مرور شهور على تلك المصادفة قلت لي إنَّ ذلك العجوز محظوظ، لأنَّه يستطيع أن يجد أكثر من موضوع يثير عنده رغبة «الحكي» في الوقت ذاته، فرددت: «لا ادري ربما نقل إلينا ذاك اليوم فيروس الكلام!».

فتقهقه: «لا بل أنت نقلتِ لي فيروسًا من نوع آخر، أولم تحدثيه عن السحايا، ثم تسأليه عن ورود جورية زرقاء. هل

تصدِّقين! شعرت أنَّك مجنونة، أو ربما غريبة ما، تحاول جذب الأنظار إليها؟!»

لم يحدّثنا العجوز بعد ذلك، حين أصبحنا نمرّ عليه معًا، أو حتى يشكو كاتب المقالات، على الرغم من أنَّ الكاتب دعا إلى العودة لمفاوضات التسوية في كتاباته الأخيرة، لكن لم يهمّ وقتها أيّ شيء. سرقتنا شهوة الكلام حتى حين كانت تمنحنا الحياة متَّسعًا لشهوات أخرى.

ذات مساء، وجدتك تكتب إحدى قصائدك، محتارًا في اختيارك لزمن الأفعال، فهل تقول مثلاً: «زمن يقودنا فيه رهاب الموت أم قادنا فيه»، وبعد طول جدال وخلاف جذري، سحبتك إلى موضوع آخر: «عرفت لماذا العجوز لا يتحدَّث إلينا.. إنَّه يشعر بذنب أنَّ محله كان مسقط رأس معرفتنا».

لحظتها ثُرت في وجهي: «إلى متى تظلّين قلقة حول ماذا يعتقد الناس بك، أم هذا يقع ضمن بحثك حول مراقبة العبثي والمتدين، لتعرفي لماذا الأول يكتب أفضل من الثاني؟».

ـ ولكن.. إنَّه مجرد بائع زهور، وليس مفكّرًا، ومواطن آخر متدين من الملايين المحيطين بنا.

ـ أعـرف . . لكنَّه خـالف نظريّتك حـول وجـوب صـمت المتدين أكثر من العبثي .

ـ نعم، لأنّه مطمئن .

ـ إلى تلك الحقيقة . . هل مازلت تعتقدين بوجوده؟

صمتنا كغير عادتنا، لكنّ استفزازك لم ينته بعد، فباغتني فجأة « لماذا قلت مسقط رأس معرفتنا وليس حبنا؟ هل الجهل قيد الحب والمعرفة ضمان استمراره، أم العكس؟ » . . كنت متيقنة من إجابتك . . وقلقت من معرفتنا لأفكارنا ومفرداتها، وتركتك لاعنة قصيدة التفعيلة المملة تلك .

مرت الشهور وكان بيننا الحب والمعرفة والخوف، وابتعنا آلاف الورود من العجوز المتديِّن، لكنَّك فجأة، كما تذكر أيُّها الشاعر، تغيَّرت عباراتك لتصبح كعبارات كل الرجال حين ينوون هجر الحب « . . أحبك . . لا أستحقك . . أنقذك من عذابي . . . » وأحيانًا تحاول فذلكة عباراتك بما يليق بمثقف يساري وتقول : « أنا محاصر بنماذج لا تليق بك أو ربما أنت مختلفة عنها » . وكنت أخيراً قد تفوَّهت بما يحزن القلب وينبئ بالفراق .

في محل الزهور سمعت عن مرضك لأول مرة من العجوز الملتحي بعدما فتحت معه مائة موضوع لأصل إليك .

ـ كان رأسه يؤلمه بشدّة، أعتقد أنَّه مصاب بالسحايا.. ولكنَّها كانت مجرد التهابات في ضرس العقل، وعملوا له عملية لخلعه.

ابتسمت لأنِّي تركت فيك شيئًا على الأقل، ولو أنَّه هاجس المرض بدل أطياف الحب الجميلة.

# هجرة الهبات

كنتَ جالسًا على ذلك المقعد، وحيدًا ترتكز إلى السور القديم، ومحدِّقًا في الأشجار السوداء. عرفت أنِّي سأجدك. ناديتك عدة مرات. تأخَّرت حتى نظرت إليَّ قائلاً بدهشة: «حرماني دفعني للظنّ أنِّي قد أكون تخيَّلت صوتًا أنثويًّا، وليس إنَّك تناديني حقيقة».

تندرت بعبارتك تلك لأيام وأيام، وذلك الكرسي الذي لا يخلو من جلساتك المسائيَّة وساندويتش الفلافل. كنت آتيك محمَّلة بكتبك فتُخرج ورقتك المهترئة وقلمًا من جيبك، تضع الدوائر والخطوط تحت الكتب التي استرددتها منِّي، وأخرى لا تنفك تلومني على تأخّرها: «يبقى لديك

البستان لبولز، والسفينة لجبرا، ومجلة تشكيل، أنتظرها الأسبوع القادم».

تشاجرنا، وتعللتُ بأن الوقت غير كاف، فقطعت حديثي لأنَّك لا تناقش في مواعيد الاسترداد، وربما تبدأ آخر لا ينتهي حول الميثولوجيا والأديان، أو تمارس عادتك الجميلة في تلخيص محتوى كتب جديدة لم أقرأها بعد، إلى أن تنبهنا الأمطار وأحيانًا هدير طائرات الإف ١٦ أنَّ الوقت حان للرحيل.

أتذكَّر أنَّ هناك مرات قليلة كنت تأتي أنت فيها، وتبدأ ما تسميه محاولات رجل تعس: «لماذا لا ترغبني النساء؟ ألست وسيمًا كفاية؟» أحدِّق لحظة أو لحظتين في بنيتك النحيلة ونظارتك الطبيَّة وأعلن متحاشية الردّ: «التحليق العسكري عاد من جديد».

نقضي أمتار العودة ننعم بلغة التعاطف، وأخبرك كيف يهجر الحب النساء في أوقات الحرب، ويحمل العشق ذنب شياطين العالم بدل كونه هبة تنقذك منها، ونصمت فجأة ككل مرة حين لا نجد ما يواسينا، وأحيانًا نعود إلى ورقتك المهترئة وجدلنا المسائي.

رجعت الى كرسيك بعد أسبوع. لم يتغيَّر شيء حتى ذلك الخيط الأصفر القصير لا يزال مهملاً على ياقة سترتك. تبدأ في عد الكتب المستردة، وتقترح جديداً لكن عواقبه قديمة: «ما رأيك أن نكتب عن بعض المثقفين الكبار وزيفهم؟».

أتجنَّب رغبتك في إثارة المشاكل خاصة حين تخلط بين النقد الشخصي والأدبي في مقالاتك، وأسرد لك قصصًا لا ترعب سوى أصحابها: «جاءتني إحدى الفقيرات تطلب منِّي أن أجد لها طبيبًا مختصًّا في علاج ابنتها من التبول اللاإرادي، فقد خطبها رجل غني لابنه الذي يعاني من إعاقة في عقله». تضحك طويلاً، وأنا أنتظر أن تنتهي قهقهاتك التي غدت مفتعلة.. أتمشى وأتعمد الابتعاد.. تناديني بصوت عال: «اسمعي هل قرأت كتاب اللَّه ليس كذلك؟» وصرخت متمنية أن تهجرني آخر الهبات.

ورددت لي الصراخ: «لكن هل تقصدين الروح أم البصر؟» وأبتعد.

# Your Baby

تضحك. كيف تضحك في هذا الموقف، ماذا سيقولون عنها...

كانت المرة الأولى التي تشعر بها بأثر التخدير الطبي الموضعي الذي سمعت عنه سابقًا عشرات القصص، لكنَّها لم تتوقع أن الأمر سيكون مثيرًا للدغدغة إلى هذا الحدّ، خاصة عند نهاية عمودها الفقري.

بحثت في وجوه الأطباء المطلّة فوقها على أثر خطوط الضحك المنسية حول الفم، علها تدلّ على كوميديَّة أحدهم ليعذرها إذا قهقهت عاليًا في مثل هذا الموقف، لكنَّها لم تر غير الطبيبة التي تتكلَّم الانجليزيَّة بتلك اللكنة البريطانيَّة الجافة، وهناك الطبيب الهندي الذي يبدو مشغولاً بأدواته.

لم تضحك.. اختفى الإحساس بالدغدغة ولم يعد هناك سوى اللاقدمين واللابطن واللاظهر واللاساقين، فالبنج الموضعي شل ما تحت سرتها حتى أظافر قدميها.

ولم يلبث أن خاطبها الطبيب الهندي ليقترح مسكِّنًا يجعلها تنام، بعد أن رأى ضربات قلبها تتراكض على جهاز التخطيط الموجود في الغرفة... لم ترد.

انتقل انتباهها إلى الشاش الأبيض أمامها الذي يفصل وعيها عن الجزء السفلي، حيث مشرط الطبيبة يفتح لحمها.. كل ما تراه خيالات، وتحسّ بما يشبه دبيب أرجل عنكبوت على أسفل بطنها... وعي غاب عن الجسد لكنَّه لم يغب لحظة عن الانتظار.

انتظار موقف سينمائي حين تحكيه، لكنَّه في الحقيقة واقع غائر في الحياة. إنَّه وعد تلك الممرضة الجنوب أفريقية حين قال: «نفتح رحمك ثم نخرجه لتري طفلك لأول مرة».

طفلها.. أين هو؟ الخيالات خلف الشاش الأبيض تزداد سرعة.. شعرت للحظة كأنَّها قاعدة حديديَّة لماكنة كهربائيَّة تتحرك تروسها وأقطابها يساراً ويميناً.

النعاس يهاجمها ـ يبدو أنَّه مفعول مخدر الطبيب الهندي ـ تقاومه.. ستشعر بالذنب إذا فقدت تلك اللحظة، ولم تر جنون تسعة أشهر من الخلق.

كان ذلك هو الأمر ببساطة: كل العالم يحمل ويلد وتتكاثر فيه البشرية «بالإنجاب والمرايا»، إلا رحمها فكأنَّ كل حالات الحمل ـ الولادة تلك، التي لا يدرك العالم شاعريَّتها، تكومت فيه. إرهاصاتها وظروفها وخلجاتها عششت في أعصابها. هي.. قلبها هي.. عقلها هي.. طوال تسعة شهور من ترقب الوقت والإحساس بخربشة كائن صغير في بطنها.

أين هو هذا الإنسان الصغير؟ الانتظار يطول وهي خائفة أن يزحف «الخدل» لعينيها، وتغيب عن..... فتحت عينيها على صوت صغير يبكي، لكنَّها لا ترى صاحبه.. ربما نسوا أنَّها أمه.. لا تدري.. تنادي، إلا أنَّ حروفها لا تخرج.. تسمع صوت بكاء غير صافٍ، كماء يخرج متقطِّعًا من حنفية قديمة تزعق فيها حشرجة الهواء.

تعرف أنَّ ابنها ليس ماسوراً حديديًّا، لكنَّها تريد فقط التأكد من ذلك ورؤيته في لحظة الغياب والوعي تلك.

« ... your baby » هذه الجملة الباردة سبقت عرض كائنها المتسخ والعاري، من شعره المبلل حتى أطرافه التي تتلوَّى وكأنَّه حلزون بشري.. إلا أنَّه حلزون يدفعها للبكاء.. بكاء يخرج من الروح شهقات.. وربما دموعًا ساخنة.

بكاء يحمل الخوف على هذا الحلزون من عالم ستورِّثه إيَّاه.. وخائفة أن يحمّلها الذنب حين يأتي وقت تخيّب هذه الحياة ظنّه وأمله بها.. بكاء يطبع جرحًا جديدًا في القلب، اسمه القديم: الحب.

# سطر في ورقة

خرج مسرعًا بعد انتهاء دوامه متوجِّهًا إلى بيته. كان يشعر بحاجته إلى الوصول، لأنَّ هناك اليوم ما يستدعي أن يتمدَّد طويلاً على السرير، ويفكِّر في الكثير من الأشياء.

أسعد ينظر إلى الفراغ واضعًا كفه على جبينه، ممدَّدًا على سريره، الذي يستشعره كفنًا سيحلق به أبدًا في سماءٍ سوداء خالية من القمر والنجوم، حين قال ذلك لأمه ذات مرة ردت عليه ساخرة: «السرير ثقيل على الطيران».

تذكر كيف كان تفكيره مغيبًا عما دار اليوم داخل الفصل: «يا ترى هل شعرت الطالبات بشرودي؟ فقد سمعتهن يتهامسن. أستطيع استرجاع السنوات الماضية جيِّداً، فهي مثل

أوراق طويلة طويت بسرعة، ولا شيء مثير في هذه الأوراق غير سطر في كل واحدة منها يلخص ما حدث سابقًا، ويبدو أنَّ عليَّ اليوم أن أنهي ذلك السطر، وكالعادة بكثير من الصعوبة...»

عشر فناجين قهوة، علبتا سجائر، يجلس على حافة السرير مرّة، يتمدَّد مرّة أخرى، وربما القرفصاء أحيانًا.

أيُّها الرجل الكئيب، أصبح اليوم عمرك ثلاثين عامًا، لا محالة من اصطياد السنوات الضائعة، إنَّها مثل ذرات غبار متشابهة تتّجه نحو الشمس.. إلى الموت.

«سأموت وحيدًا، وأدفن وحيدًا، حتى هي ربما تبكيني، لكنَّني سأموت وحيدًا، نتمناه، نخافه، إنَّه متربِّص بنا».

قال لي جارنا ذات عاصفة: «يجب عليك الزواج يا أسعد، الشباب في مثل سنّك لهم ولدان وثلاثة».. يا للهراء، لقد صنَّفني ذلك المعتوه كعانس وحيد، كلُّنا نفعل ذلك، كل واحد منَّا يصنِّف الآخر على هواه وينظر إليه من خلال منظاره الضيِّق فقط».

يحدث ذلك دائمًا أيُّها الرجل الكئيب، ترتمي بين أمواج البحر حتى تصبح جزءًا من لزوجته، وتصرخ قائلاً: «لقد

فـشلت»، وربما تضع رأسك باكـيًـا على صـدرها، وتقـول متحشرجًا: «لقد فشلت...»

في كل الأحوال اعترافك لن يبعد الفشل عنك أبدًا.

«أبي.. أين أنت؟ لم أصدِّق أنَّك تركتني غريبًا في ذلك اليوم، الذي أستشعره باهتًا يحدق في الأزمنة اللاحقة».

أيُّها الرجل الكئيب، حتى عندما مات أبوك شعرت شعوراً كبيرًا بالذنب، لأنَّك لم تقبله أكثر مما قبلته، ولم تتلمَّس عروق يديه البارزة أكثر مما لمست، ولم تضع ملامحه ونبرات صوته في قلبك أكثر مما فعلت.

«قرأت ذات مرة أنَّ من لم يشم زهرة أو يتأمَّل نجمة، ليس إنسانًا بل طحلبًا.. ربما لو كنتُ طحلبًا لتغيرت الكثير من العذابات.. لكنَّني أشمئز من برودته».

كونك إنسانًا ولست طحلبًا يجعلك أيُّها الكئيب تنسى أن تعيش حياتك أنت.. هو يتنفس.. هو يتعايش.. هو قابع.

«أنا أتنفس.. أنا أتعايش.. أنا قابع...»

كلُّها عندك أيها الرجل التعس مفردات لمعنى واحد، أنَّك ميت.

« قررت أن أهجر عائلتي لأنَّها تحدّ من حريَّتي، وأستقيل من عملي لأنَّه لا يمنحني التجربة الصادقة، وأترك أصدقائي لأنَّهم يضحكون كثيراً » . . هل تتذكَّر كم مرة قفزت من سريرك سعيداً إثر قراراتك تلك؟ ثم ماذا؟ ما زلت تنفي نفسك، وتذوب شوقًا وتعاسة . . إنَّك ترقص في حلقة ستظلّ تدور في فراغ لا يموت، وتحاول الاقتناع بأنَّ ذلك السطر الإلزامي كافٍ لإنصاف ذاتك .

دقّت الساعة السابعة صباحًا : « يجب أن أرتدي ملابسي بسرعة حتى لا يفوتني طابور الصباح . . . »

أنظر إلى نفسك، إنَّك تنجرف من جديد في ذلك التيار اللامنتهي .

# مسافات النسيان

كلَّما أمطرت شعرتُ أنِّي أعرف اللحظة، كأنَّها مختبئة في الماضي. وأعادها المطر القديم إلى الحاضر. إنَّه يعيد كل الوجوه الغائبة، والأحباب الذين خطفهم الموت بعربة خرافيَّة.

إنَّه مطر قديم يشرع النوافذ على أسئلة الدهشة: لماذا كل ما مررنا به يعود مرة أخرى وبمجرد الانتهاء من عذاباته؟

فيطبق الحزن على صدري مُكرِّرًا منذ حزني البعيد، حين كنت في الثامنة وفجعت بموت جدي.. إنَّها مسافات بعيدة من النسيان بيني وبين جدي، لكن المطر القديم يضعني هناك عند شجرة الزيتون الضخمة بجانبه أثناء جلوسه في باحة البيت القديم الكائن في بلوك (N) في مخيَّم رفح، وكانت الوكالة وزّعت المخيم إلى بلوكات حتى يسهل توزيع مساعداتها على اللاجئين.

ويضع المصحف أمامه على المسند الخشبي، وأنا لا أفارقه بل أجلس تحت الشجرة ألاحق الخنافس رماديَّة اللَّون.. وأذكر أنِّي لم أعد أرى هذا النوع منها أبداً كأن تلك الشجرة لها حشراتها الأليفة، وأشعر فجأة بشيء ساخن على رقبتي وأسمع ضحكات جدي، فأعرف أنَّ عصفوراً آخر ألقى فضلاته على رأسي، ويقول لي بوجهه البشوش المليء باللحية البيضاء: «هناك بشارة يا سيِّدي في الطريق إِليك»، فأشعر بالأمان أكثر وأكثر، أمان لا أذكر أنِّي شعرت به بعد ذلك.

مطر قديم أخذني إِلى لحظة اكتشف فيها جدي أنِّي لا أرى بعيني اليسرى ولم أكن أتجاوز الخامسة، معتقدة أنَّ كل الناس ترى بعين واحدة فقط، فأخذني إِلى الطبيب الذي لم يعط للأمر أهمية مما جعل من المستحيل علاجها بعد أن اكتشف طبيب المدرسة عقب ثلاثة أعوام أنَّها مصابة بكسل في الأعصاب، لا تتوافر إِمكانيّة علاجه بعد بلوغ السادسة.

وحلَّ حزن جديد في حياتي، عين واحدة وجد غائب وشجرة زيتون بتروا جذعها... لتتساقط بعد ذلك أحزاني المتوالية في حضن اللحظة المنسحبة إِلى الماضي، لكن لا يلبث المطر القديم يحوِّل تلك اللحظات إِلى قنابل صغيرة موقوتة....

# من الشمال إلى الجنوب وبالعكس

غادرتْ من جنوب الوطن إلى شماله، بعد أن انتظرته حبًا ووردة.

تحدّق أمامها وفي حضنها «فوضى الحواس».

ترقب الشارع الطويل، علَّه يظهر.

قلَّبت حقيبتها.. الدوزدان.. شاحن الجوال.. أقلام الكحل.

تبحث عن قلم قبل أن يهرب من ذاكرتها، فتخطّه حروفًا وئيدة إلى الروح.. قبل أن يشغلها انطلاق السيارة، وسرعة مرور الأشجار، وكلمات الجدران، ومطاعم الفلافل الباهتة، عن اصطياد لحظاته، وحبسه بين دفاترها.. قبل أن يهرب من قلبها،

كـمـا هربت هي من قـدره وابتـعـد عنهـا، حـيث أخـذته الحـيـاة والدروس الخصوصية وابنته.

«التي لـم يكن إسـمـهـا مـثل إسـمي كـمـا وعـدتـني.. بل أصبحنا مثل كل المحرمات التي تزورنا ليلاً في مساءات اللاوعي والكوابيس.. بيننا أسوار وممرات أركض فيها بحثًا عنك، لكنَّني لا أجـدك... الجنوب أنت، وأنت الوطن، والشـمـال تكتـيك مرحلي ينسيني بقايا غصة في الحلق والمنام».

أخبروها أنَّه نصح طالباته بتجاوزه، فلا يبقين مرضى الحب الأول، كـمـا هو بعـد سـتـة أعـوام مـرت ولـم تـقـابله فـيـهـا، وكـأنَّ الصـدف ذاتهـا تتـآمر على من تركض وراءه وهـمًا ولا ترى سوى ظهره متَّجهًا إلى البعيد.. ظهره الذي تمنحها إيَّاه دقائق التأخير وتمنعها عن القول: «ها أنا، لا أزال محكومة بك»، وربما يكسر وقتها سحر الفراق، وتجعله لقاءً تافهًا دبقًا!

لماذا الوطن شمالاً وجنوبًا، إذا خلا كلاهما من الحب؟

ماذا تفعل؟ تتنكَّر بجانب بيته شجرة، وربما حجرًا، علّها تلمح قميصه على حبل الغسيل.. منزله المكان الوحيد الذي اشتهته دون رؤيته أو الوصول إليه.. أربعة أعوام كتبته خلالها أسعد وجابرًا وهاء الغائب ولم يتغيَّر شيء.

لا الحروف أعادته ولا الأفكار غيرته.. «أنت أنت ذاتك الرجل الذي يفقد السعادة حين يعرف أنَّه سعيد.. الرجل الذي كان يقفز من سريره واعداً نفسه بتغيير حياته وعجزه، والآن أصابه ثقل الوزن حتى غدا غير قادر على المشي إلى حواكير البرتقال، لتأتي لي بطوق من أزهارها، كما كنت تفعل في صباحات المدرسة النديَّة».

«أنا في الشمال، وأنت في الجنوب، ولم يتغيَّر شيء.. قالوا لي إنَّ زوجتك حامل مرة أخرى، وقالوا لك إنَّني لا أزال أركض وراء اللغة.. وبينهم وبيننا لاشيء، وبينك وبيني كل شيء...»

# علبة نيدو

كانت بالنوم تتحايل على كوابيس اليقظة في طفولتها. كوابيسها التي يشعلها في عقلها الكبار، حين يهددونها بنار جهنم، إذا ما كذبت، أو بلَّلت فراشها، أو نقلت الأحاديث بين الأقارب، فشبكت بينهم دون قصد.

وفي ليالٍ كثيرة لا يأتيها النوم فتحاول إشغال وقتها بنسخ العبارات التي تكتبها والدتها إلى والدها المسافر للخليج، ليتفاخر بابنته التي لا تتجاوز السابعة، بأنَّها تعرف كتابة عبارات الحنين والشوق.

تتعب يداها، ويبدأ النعاس يتسلَّل إلى عقلها، لكن لحظتها تفيق الكوابيس حولها: «ماما.. إنَّه الجيش.. الجيش..

يقترب»، ولا سبيل أبداً في تلك اللحظة لإقناعها أنَّها دقات ساعة الجدار، فقط علبة النيدو الموضوعة بعناية فوق الخزانة تستطيع بلونها الأصفر ولمعانها تهدئتها بأنّ الأمور بخير.

وفي مساءات كالحة أخرى، حين يُشَيِّع الخوف النعاس وتحلّ مكانه جرثومة الأرق، لا تجد أمامها سوى مراقبة علبة النيدو الحديديَّة، متمنِّية لو كانت هي تلك العلبة.. لحظتها لن تخشى أيّة نيران، وسيقدرها الجميع كما يقدّرون النيدو غالي الثمن، الذي يأتي به أعمامها من عملهم في إسرائيل.

وكون الكبار هم من يجلبون علبة النيدو إلاّ أنّ ذلك لم يشوِّش علاقتها بها، بل طالما اعتبرتها مستقلّة بذاتها، تهرب إليها كلَّما ظلموها وضيقوا الطوق الحديدي حول رقبة طفولتها «وين كنت... ليش تأخرت؟ غير نذبحك»، «ليش مش لابسة بنطلون تحت الفستان.. ربنا غير يسخطك قرد ويحطك في النار»، «لا تُنغّمي الأذان خلف المؤذن.. حرام بتروحي على النار».

مرت أعوام وكانت تعتقد أنّها تجاوزت علبة النيدو واكتوت بنيران أصدق من نار جهنم، وعاشت كوابيس لا تعرف أبداً التحايل. إلا أنَّها أيقنت أنَّ خيباتها تطرق باب الأوهام،

وتستدعي علبة النيدو بكل حيادها المعدني ذاك، لتبدأ لعبتها مع الاحتمالات غير المحقّقة: «ماذا لو كنت علبة النيدو تلك؟ لن أعرف الألم، ولن أقابل ثعالب البشر، ولن أتقافز فوق نيران الفشل، سأظل علبة نيدو يقدِّرها الجميع، ويحرصون على بقائها في مكان أمين».

غالبا ما تشعر أنَّ علبة النيدو حبكتها الشخصيَّة ومفتاح سرّها، وأن إيمانها عدمي كمآلها، وخوفها زائل لمجرد اطمئنانها إلى حيادها، وحزنها مفروض لأنَّها لم تكنها.

وتعلم أنَّ حياتها ستغادر وتسافر لترجع وتدور في مجال علبة النيدو.

# يباس في القلب

أحبَّها عند الحاجز العسكري وكان يملك كلّ الأسباب ليفعل ذلك وتتعمَّق في خيالاته منذ تلك اللحظة.

قال لها فيما بعد: «كنت جميلة صغيرة وضائعة إلى أبعد حدّ. تحاولين تجاوز السيارات المتساحقة التي تنتظر الاحتلال ليفرج عنها».

كان حينها يمتلك سيارة سبارو بيضاء قديمة، وكان يبدو في العشرين إلاّ أنّها عرفت لاحقًا أنَّه كان في الثلاثين من عمره.

ابتعدا وبقيت ساكنة عينيه ليتقابلا بعد ثلاثة أعوام صدفة أيضًا، وكما انتشلها المرة الأولى من الانتظار وكان بوصلتها.

انتشلها المرة الثانية من حزنها ووضعها في مواجهة الحب بدل تقديم روحها قربانًا للعدم.

« القبلة الأولى »

لم يكن الأمر بالحسبان، كانا يتكلَّمان ويكتشفان المتشابه بينهما، في البداية شعر أنَّ خلاياه تشتهيها بمجرد أن يشمّ رائحة كريم اليدين الذي اعتادت استعماله خوفًا من تقشف بشرتها في الشتاء، فاقترب وكانت هي الأخرى مأخوذة بشفتيه المكتنزتين رغم أنَّ السجائر غيَّرتهما إلى اللون الأزرق. لم يتنبأ لكنَّها باغتته وبادرت بالقبلة، فباغتها ثأراً لرجولته بلسانه وكأنَّه كان يتربَّص لفمها.

ضحكا كثيراً حين تصارحا حول القبلة الأولى وبرَّرا جرأتهما أنَّهما لم يريدا إخفاء مشاعرهما الحقيقيَّة تحت غطاء موهوم من هالات الأنبياء.

« القبلة الثانية »

كان يعتقد أنَّه اعتاد على رائحة كريمها لكنَّه تفاجأ أنَّ هناك المزيد مما يثيره فيها، فهناك شاماتها المتناثرة على رقبتها وبشرتها البيضاء الصافية، الذي جعله مقتنعًا أنَّها لو شربت رشفة ماء فسيراه يجري في حلقها، وصدَّق خيالاته لدرجة

تعمَّد مراقبتها مرة أو مرتين تشرب، كانت شهوته تسكت عقله فلا يقتصر الأمر على لسانه بل أصبح للحب شياطينه المقدَّسة.

«القبلة الثالثة»

كان قد اقتنع أنَّ مجرد وجودها بجانبه يعني استدعاء إيقاعات شهوته بتدرُّج قاتل، كأن هناك جسرًا لا نهائي الانزلاق بين الوله وجسدها، فيعبرها بأصابعه ويغوص فمه في أماكنها السرِّيَّة.

بعد القبلة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة.... أيقن أنَّ الحياة تخلق توائم في العشق حتمًا تتلاقى يومًا ما، وكان حظوة القدر لهما تلك الصدفة الأولى، وأيقنت هي أنَّها من دونه ودون صوته ودون أن تستسلم لسلطان شهوته، ودون أن يُضحكها بتطرفه الاشتراكي الذي وصل إلى حدّ أن إيميله البريدي كان يملكه أصدقاؤه أيضًا، فهي طائر هائم.

وبعد ألف ليلة، أدرك الليلة أنَّه لن يشطر القمر نصفين ويهديها أحدهما ويُبقي الآخر بين رموش قلبه أو يبارك حكايتهما السرية أو يتهجى اسمها بانتقاء وفرح كأنَّه يرقص على أطراف أصابعه.

الليلة يبتكر كلٌّ منهما وجعًا أخف لاجتياز الغد بذهول أقلّ.

الليلة سقط الحنين من شِباك القلب ولم يبقَ سوى يباس وذكرى عابثة عند ذلك الحاجز العسكري.

# الفهرس

**سنان شعلان ـ رسالة إلى الإله ..... ٣**

حادث موسف سعيد جدًّا ..... ٥

زاجر المطر ..... ١٥

الجسد ..... ٣١

الباب المفتوح ..... ٣٧

ملك القلوب ..... ٤٥

رسالة إلى الإله ..... ٥٧

الضفّة الأخرى ..... ٦٣

اللوحة اليتيمة ..... ٦٩

رجل محظوظ جدًّا! ..... ٨١
الصورة ..... ٩٩
مدينة الأحلام ..... ١١٥

**أسماء الغول ـ هجران على لوح أسود وقصص أخرى ... ١٢١**

إهداء ..... ١٢٣
أنت وأنا ..... ١٢٥
قبر أمي ..... ١٣٣
هجران على لوح أسود ..... ١٣٧
إدراك ..... ١٤١
حيرة ..... ١٤٣
ورقة واحدة مشوّشة ..... ١٤٥
تأويل الحرير ..... ١٤٧
جلوس ..... ١٤٩
رجل في الأربعين ..... ١٥١
أرق السياق ..... ١٥٥

تفاصيل رجل عاشق ..... ١٥٩
إلى نائلة خليل ـ بدايات ..... ١٦٣
ثرثرة لطيفة ..... ١٦٥
هجرة الهبات ..... ١٧١
Your Baby ..... ١٧٥
سطر في ورقة ..... ١٧٩
مسافات النسيان ..... ١٨٣
من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ..... ١٨٥
علبة نيدو ..... ١٨٩
يباس في القلب ..... ١٩٣